طـرق الـمـنـفـعـة بـالأجـوبـــة عــن الأسـئـلـــة الأربـعـــة

تأليف

العلامة القاضي الحاج أحمد سكيرج
رضي الله عنه

دراســة وتــحــقـــيـــق

مــحــمــد الــراضــي كــنــون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مرشد من استرشده، ومجيب سؤال من دعاه، بتبليغه في الدارين مقصده، فهو الكريم الذي تكرم على العباد بنعمتي الإيجاد والإمداد، نحمده حمد عبد قال ربي الله ثم استقام، وأشكره شكر من أقر له بالعجز عن أداء حق الشكر ولو استغرق أنفاسه فيه على الدوام، ونصلي ونسلم على من أعطي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا، سيدنا ومولانا محمد أكرم الخلق على الله سرا وجهارا، صلاة وسلاما نؤدي بهما بعض الحقوق الواجبة علينا لجنابه، ونستجلب بهما إقباله علينا وقبوله لنا بين محبيه وأحبابه، ويشملان بطيبهما الفائح جميع آله وأصحابه، وكل من تعلق بنية صالحة بأعتابه، ورضي الله عن شيخنا القطب الرباني، والختم الصمداني، سيدنا ومولانا أحمد التجاني، سقاني الله والمحبين فيه من عرفانه بأعظم الأواني، والسلام التام المحفوف بالإجلال والإحترام لمحل ولدنا الصالح، ذي النية الصالحة والإعتقاد السليم من كل انتقاد بين ذوي التجارة الرابحة، مع الهمة العالية والنفس العلي، أبي عبد الله السيد محمد سعيد بن علي(1) فإنه أنجح الله سعيه، وسدد رأيه، كاتبني من الإسكندرية محل استيطانه الأرفع(2)، يسألني عن مسائل أربع، ولحرصي على إدخال السرور عليه، وعلى بقية إخواننا التجانيين المقيمين لديه، سارعت لكتب هذا الجواب مصدرا له بمقاصد مهمة، وهي للأجوبة عن هذه الأسئلة كالمقدمة والتتمة، والله أسأل أن يجعلها نافعة لذوي الإعتقاد في أهل الله، ورادعة لأهل الإنتقاد بما تبديه لهم من الحق المبين الذي ما فيه اشتباه. وسميتها بطرق المنفعة، بالأجوبة عن الأسئلة الأربعة.

وليعلم المطالع عليه أن الكلام إنما هو مع المعتقدين في جانب أهل الله اعتقادا جميلا، أما المنتقدون فلا يقبلون كل ما نسب لهذا الجانب ولو رأوا الحق عيانا، فالرد عليهم لا يفيدهم نفعا، فالأولى للموفق الإعراض عنهم، ولنضرب عن ذلك صفحا، ونقول وبالله التوفيق.

---

(1) محمد سعيد بن علي أفندي، من خاصة تلامذة العلامة سكيرج بالإسكندرية بمصر، وبينهما رسائل وأجوبة كثيرة، وتمتاز رسائله عن غيرها بعدة خصائص، منها خطه النسخي الجميل الواضح، مع دقة أسلوبه وحسن اختياره للعبارات الناجعة، ويعود لهذا السيد الفضل في طباعة بعض كتب العلامة سكيرج بمصر، حيث كان يشرف على شؤونها بنفسه، ومنها ما طبع على نفقته برغبة واختيار منه، وكان العلامة سكيرج رحمه ا يحترمه ويجله وينوه بقدره بين الأصحاب.

(2) وقفت بالخزانة السكيرجية على رسالة الأديب سيدي محمد سعيد بن علي أفندي التي تتضمن هذه الأسئلة المذكورة، وهي مؤرخة في 26 جمادى الثانية عام 1345هـ، ولم يستغرق جواب العلامة سكيرج عنها أكثر من أسبوع واحد، وطبع هذا التأليف في نفس السنة المذكورة بالإسكندرية بمصر في 76 صفحة.

المقصد الأول :

في التنبيه على أن الشيوخ غير معصومين وأنه قد ينسب لهم ما هم بريئون منه

قد اتفقت كلمة علماء الظاهر وعلماء الباطن على أن الشيوخ ولو بلغوا ما بلغوه من مقام القربة في حضرة التداني التي جلسوا فيها على كراسي القبول عند الحق تعالى لا يصلون إلى مرتبة الأنبياء، ولا أن يتصفوا بالعصمة، ولو كان الشيخ من أكابر الأولياء المحمدين فإنه غير معصوم من الخطأ والخطايا، وإن كان له الحظ الأوفر من الحفظ الإلهي لاعتناء الحق به، ولكن العصمة إنما هي للأنبياء والملائكة عليهم السلام، ومن كان بهذه المثابة فإنكار ما تقضي الشريعة إنكاره عليهم متعين في حق من خاف تضليل الناس به، إن صلحت نيته وكان لديه علم واسع واطلاع تام على أصول الشريعة وفروعها، وقليل ما هم، ولهذا يتعين في حق المريد أن لا يلتفت للمنكرين على من تحققت خصوصيته، وتأسست على الكتاب والسنة طريقته، والإنكار من القاصرين لا يعود عليهم إلا بالوبال، وقل من نجا من المنكرين ولو كان من أكابر العلماء، والتسليم للأولياء ما فيه إلا الخير على كل حال، وكثير من فحول الأعلام أنكروا القول من أصله لمن نسب له، عندما تحققوا بديانة المنسوب له وعظيم منزلته في الولاية، لأنه قد ينسب لهم ما هم برءاء منه عند الله وعند خلقه.

وقد وقع ذلك بالفعل في كتب جل الأكابر من العارفين. وقد تتبعت ما ينسب لسيدنا القطب التجاني رضي الله عنه ولطريقته من الكرامات الغريبة، والمقالات الهائلة والفضائل العجيبة، من كل ما خاض فيه المنتقدون عليها، فوجدت منشأه من جهلة الطريقة الذين ينشرون كل ما يسمعون على حسب ما يفهمون، ويزيدون في الشيء أيديا وأرجلا حتى يقوم في صورة منكر لا يقبله شرع ولا عقل، وهؤلاء الجهلة على قسمين : أولهما بعض الداخلين منهم في زمرتهم ممن تظاهر في زي علماء الطريق، فيكتبون ذلك المسموع على قدر مبلغهم من الفهم، ويصممون على أن ذلك من الحق المتين والفتح المبين، وما هم من الضلال ببعيد، ثانيهما : الجهلة الذين يظنون أن ذكر ما يسمعون أو يختلقون مما يرغب الناس في الدخول في هذه الطريق، مع أن سائق السعادة يسوق إليها من عد منها، ولو لم يسمع منهم أو من غيرهم مثل ذلك، والصارف الإلهي يصرف عنها من ليس من أهلها، فيظن الجاهل أن ذلك فيه الخير له، ويعده من الطاعة للحق والتقرب إليه مع جهله الفادح، وقد أفسد به من حيث لا يشعر العمل الصالح، وقد قيل :

ذاك الذي بغير علم يعبد   لا يصلح العمل لكن يفسد

ومنهم جهلة المقدمين لتلقين الأوراد، مع علماء الطريق الذين يجمعون عليهم الجموع، ويتقدمون على غيرهم بذكر مثل ذلك بين العوام، ويتبجحون بذكر الأسرار والخواص، وينوهون

بذلك بينهم أكثر من الذكر اللازم في الطريق(3)، ويحبون الإستيلاء على القلوب بمثل ذلك، ويظهرون أن ذلك من الأمور التي لا تفشى إلا لذوي التمكن، ويستكتمون من تلقى عنهم ذلك من الجهلة، وفي ضمن نيتهم باستكتامهم إفشاء ذلك، لأن الجاهل ومن في معناه مثل الغربال المودع فيه الماء فلا يمسكه، وربما أفشى المستكتم ذلك إذا لم يفشه ذلك الجاهل فيقول مثلا : إن فلان رجل يكتم الأسرار، وقد جربته بنفسي، فقد لقنته السر الفلاني المروي عن خواص أصحاب سيدنا ولم يفشيه لأحد، فيستلفت بمثل هذا أنظار السامعين إليه، فيتعلقون به في استفادتهم منه ذلك السر، وهناك يتسع به المجلس، وينفسح له المجال، ولا تسأل عما يقول، وما عنه يقال، لا سيما من كان من قبل متقيدا بطريقة أخرى من طرق أهل الله، وكان معتادا لاجتماع الناس عليه، فيتظاهر بالتقديم في هذه الطريقة، وينشر فيها بين العوام كل ما هو غريب أو مكذوب، والعوام مشغوفون بسماع كل غريب، ويتشوفون للتحصيل على الإذن لهم في أكثر مما لديهم من الأذكار اللازمة وغيرها، وهناك يجد أيضا ذلك المتظاهر إقبالا كبيرا عليه من العامة، ولا تسأل عما يتبجح به بينهم حتى تسول له نفسه ادعاء مقامات ارتقى فيها، ويعد نفسه من أكابر المفتوح عليهم في هذه الطريق، مع ما هو عليه من فساد النية، وسوء الطوية، نعوذ بالله من الخذلان.

---

(3) كان العلامة سكيرج رحمه ا يحض على توعية المريدين، وحثهم على التخلق بأخلاق السلف الصالح من أهل طائفتهم، مع تعريفهم بمبادئ الطريقة وشروطها اللازمة التي لا يكون المريد مريدا إلا بها، إذ بدونها يعد خارجا عن نطاق مناهجها، بعيدا عن أهدافها المنشودة وتوجهاتها، فالأخذ بالشروط اللازمة هي معول المريد الناجح في سلوكه، وإلا فالعكس صحيح.

وهذه التوعية هي من واجبات المقدم إزاء جميع المريدين على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم، وهي الوظيفة الأساسية للمقدم، فإذا أخل بها فقد أخل بالدور الكبير المناط به، وبالتالي فلا داعي لتقدمه عليهم ما دام فاقدا لهذا الواجب المفروض.

وبهذه التوعية يرتقي المريد لدرجة تجعله ملما بالكثير من أمور طريقته، عارفا بشروطها، مميزا بين اللازمة منها والكمالية، وهذه المعرفة وإن كانت سطحية فإنها تضعه في المحل المناسب المأمون عليه فيه، كما تكسبه من القوة ما يستطيع به دفع جميع ترهات المنكرين والمنتقدين.

أما في حالة إهمال المقدم للمريدين، وتركهم بدون توجيه وإرشاد، فإنه يساهم بذلك بالقسط الوافر في تضليلهم وإبعادهم عن النهج الصحيح، فهم بذلك كمثل الغنم التي نام راعيها فتركها عرضة لمخالب الذئاب، والذئاب في هذا المثل هم المنكرون الذين يتحيزون الفرصة المواتية للقض على هؤلاء المريدين، وإبعادهم عما هم يستغرقون فيه أوقاتهم من الذكر والصلاة وما إلى ذلك، وحجج هؤلاء المنكرين واهية ضعيفة لا ترقى لحدود القول فأحرى الفعل، وأكثر المستهدفين عندهم بعض المستضعفين من الإخوان ممن لا يحسن القراءة ولا الكتابة.

ويرى العلامة سكيرج أنه من أفدح الأضرار ما يقوم به بعض المقدمين الذين كانوا سابقا منضويين في طرق أخرى، فلما دخلوا في الطريقة التجانية صاروا ينتهجون في التربية والتوجيه نفس الأسلوب الذي كان عندهم من قبل، فيؤولون كلام الشيخ رضي ا عنه على غير محله، وهذه في نظره رحمه ا هي مكامن الخطأ الذريع، نظرا لاختلاف أساليب التربية في هذه الطريقة عن غيرها.

ومن هذا إقدام بعض المقدمين على بعض الزيادات فيما يتعلق بفضائل الورد والطريقة، هادفين بذلك لتحفيز الناس على أخذها، أو تحبيبها لهم، وهم بذلك خاطئون كل الخطأ، لأن هذا العمل لا يخدم الطريقة في شيء بل يضرها، ومن هنا فتحوا باب الإنكار عليهم من طرف المنتقدين والمبغضين، ولو أنهم وقفوا على ساق الجد وسلموا الأمور لأهلها لما وقع عليهم النكير.

والطريقة التجانية فوق كل هذا غنية عن هذه الزيادات، إذ فيها من الفضائل العظيمة ما ليس في غيرها، وهي مع ذلك قائمة على الكتاب والسنة الصحيحة في جميع شروطها وأهدافها وتوجهاتها، وفي هذا كفاية للعاقل اللبيب.

ومنهم جماعة ابتلاهم الله بالإنكار على أهل الله، فيشوهون وجه كل حسن مما يسمعون، ويزيدون فيه وينقصون، ليتسع لهم المجال في المقام بإطلاق عنان المقال، وربما يختلقون أمورا شنيعة ينسبونها لمن أنكروا عليه، ويستحلون بذلك الوقيعة في عرضه(4)، ويتبعهم على ذلك كل من أخبروه بذلك، بتقليده لهم فيما ينقله عنهم أو يتقوله عنه، ولربما عثر المريد على تلك الأمور المنسوبة إلى شيخه فيعتقد صحتها من غير أن يكون له بها رواية صحيحة عنه، خصوصا إذا كان جاهلا بما تضمنته من المنكر الذي يوجب النكير على شيخه إذا حدث بها في المجامع، أو سمعها من ذلك الجاهل من له أغراض في هتك الأعراض.

وقد عثرنا على شيء كثير من هذا المعنى، فتعين علينا التنبيه عليه لئلا يغتر به من بلغه ذلك، وألفت تويلفا أشرت فيه إلى بعض ما تحققت بأنه لا صحة لنسبته للشيخ رضي الله عنه، وسميته بجناية المنتسب، عما نسب للشيخ التجاني بالكذب، غير أنه إلى الآن لم يزل في مبيضته، لم يتم جمعه وتنقيحه، وذلك مما يلجم كثيرا من المنتقدين، غير أن المنتقد لا بد له من الإنتقاد، لأنه طبع عليه بطابع الحرمان، من نيل سر أهل الله، ومن نيل الخير الذي أجراه الله على يدهم للمعتقدين، وقد كان أبو تراب النخشبي(5) رضي الله عنه يقول : إذا كان حال العبد الإعراض عن حضرة الله تعالى صحبته الوقيعة في أولياء الله تعالى، وكان الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه يقول : من وقع في عرض ولي ابتلاه الله بموت القلب.

---

(4) يلجأ المنكرون غالبا لبعض الزيادات من باب الكذب والزور، وما يتبع ذلك من الإختلاقات التي يختلقونها لإقامة الحجة والدليل على المنكر عنه من جهة، ولإمالة الحق إلى ناحيتهم من جهة ثانية، وقد استعمل المنكرون هذه الأدوات مرارا لدا انتقادهم للطريقة الأحمدية التجانية ورجالاتها، لكن الحق دائما يعلو ولا يعلى عليه، فقد قيد ا سبحانه وتعالى لهذه الطريقة من خيرة العلماء رجالا أفذاذا تصدوا لهؤلاء المنكرين ببسالة ونجاعة، فدافعوا عن الحق دفاع المسلم عن وطنه ودينه، وقاوموهم على الساحة مقاومة الأسد عن عرينه، ومن هؤلاء العلماء الأفاضل صاحب هذا التأليف، العلامة سيدي الحاج أحمد سكيرج رضي ا عنه، فله اليد البيضاء في هذا الجانب بمقتضى قوله تعالى : "إن ا يدافع عن الذين آمنوا".

(5) أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي، صوفي مشهور، من أجلة مشايخ خراسان، اشتهر بكنيته حتى لا يكاد يعرف إلا بها، أخذ عن حاتم الأصم، وبعده عن أبي حاتم العطار، وأشهر الآخذين عنه الإمام أحمد بن حنبل، توفي رحمه ا بالبادية، فنهشته السباع عام 245هـ، وفي حقه قال ابن الجلاء : لقيت ستمائة شيخ، ما رأيت فيهم مثل أربعة، أولهم أبو تراب، انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج 1 ص 83 رقم الترجمة 157، وفي مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج 2 ص 174، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 233.

وكان الشيخ أبو عبد الله القرشي(6) رضي الله عنه يقول : من غض(7) من ولي ضرب في قلبه بسهم مسموم، ولم يمت حتى تفسد عقيدته، فيموت على أسوأ حال(8)، وكان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه يقول : قد تتبعنا أحوال القوم فما رأينا أحدا أنكر عليهم ومات بخير أبدا، ذكر هذا القطب الشعراني في المنن، وقال في مطلب آخر، : وأجمع أهل الكشف على أنه ما أنكر أحد شيئا أخبر به أهل الكشف إلا حرم ذلك الأمر الذي أنكره ولو بلغ الغاية في السلوك، فلا يعطى ذلك الأمر عقوبة له على إنكاره وتكذيبه أولياء الله تعالى، الذين هم آياته في الأرض، وبهم يرزق الناس، وبهم يمطرون، وبهم يدفع الله البلاء عن عباده إهـ... والمحروم من سرهم هو من سمع ذلك العارف، وهو الشيخ والولي ومن في معناهما، وأنكر ذلك بعد صحة ذلك لمن نسب إليه، وأما من لم تصح لديه نسبته لذلك العارف وأنكره بنية صالحة فإنه يثاب على ذلك، سيما إن تحقق بجلالة المنسوب إليه ذلك المنكر.

وإنه ليعجبني كثيرا ما يقوله لي المرة بعد المرة العلامة المتضلع، مندوب المعارف بالإيالة الشريفة المغربية، صادق المحبة سيدي محمد الحجوي(9)، من أنه يتعين على الصادقين في الطريقة التجانية أن يبادروا بنفيهم عن الشيخ رضي الله عنه كل ما يوجب النكير، لما للشيخ رضي الله عنه من شفوف المرتبة في الولاية، التي تأبى ما يشيعه عنه عوام الإخوان لقصور فهمهم عن كلامه، فتقصر عباراتهم عن استفاء المعنى المقصود لديه، فيقع النكير، وليس الإنكار في الحقيقة إلا عليهم لا عليه، إذ ذلك منسوب إليهم لا إليه، كما وقع ذلك في بعض الكتب المؤلفة في هذه الطريقة، وقد طبع منها ما اشتمل على ما يتحاشى جانب الشيخ رضي الله عنه، وجانب خواص أصحابه منه، وقد صدق أيده الحق في هذا الأمر، فلو نفى علماء الطريقة ما ينسب للشيخ بالكذب ما قامت قيامة المنكرين المحرومين من خصوصية الأوراد، التي لم تزل منتجة للأمداد، وإني وقفت على ما تقشعر منه الجلود مما طبع منها وما لم يطبع، فخشيت على كل من طالع ذلك الفتنة الكبيرة، فمن ذلك ما طبع بالجزائر من تويلف سماه طابعه بالكنز المدفون(10)، وإنه والله لمكذوب على الشيخ رضي الله عنه، بما اشتمل عليه من الهذيان الذي لا طائل تحته، مما يقال في حق مثله :

(6) أبو عبد ا محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي، من أعلام الصوفية، أصله من الجزيرة الخضراء ببلاد الأندلس، أقام بمصر مدة غير قصيرة، ثم سكن بعدها القدس، وبها توفي عام 599هـ، عن 55 سنة من عمره، أنظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج 1 ص 159 رقم الترجمة 281، وفي الأعلام للزركلي ج 5 ص 319.

(7) غض : بمعنى نقص

(8) أنظر الطبقات الكبرى للشعراني، ج 1 ص 159.

(9) سبق التعريف به في هذا المجموع ج 1 ص 104.

(10) حول هذا التأليف قال العلامة سكيرج في كتابه : جناية المنتسب العاني فيما نسبه بالكذب للشيخ التجاني ج 2 ص 62 : ولنكتف هنا بالإشارة إلى ما ظهر في عالم المطبوعات في هذه الأيام من تأليف سماه طابعه : بالكنز المدفون، وجله مكذوب متقول على الشيخ رضي ا عنه، وقد اشتمل على طامات من التقولات، بعبارة ركيكة، يقطع ويجزم من يعرف ما لسيدنا رضي ا عنه من الإقتدار على إفراغ المعاني البديعة في قوالب الكلم الجامعة بأن هذه المطالب متقولة عليه وليست من كلامه قطعا، الخ ...

أسمع جعجعة ولا أرى طحنا، بل رأيت فيه من الركاكة وتكرار الأعداد التي تخل بالمراد، مما يدل على جهل منشئه الذي نسبه للشيخ، وما أراد بذلك إلا فتنة العباد حسيبه الله، ومن ذلك تويلف وقفت على نسختين منه، سماه مؤلفه : يعسوب السر الرباني في مناقب التجاني(11)، ولم أتمالك نفسي حين طالعته بما اشتمل عليه من الضلالات التي لا يحل لأحد أن يفوه بها في شأن الشيخ رضي الله عنه وشأن طريقته، وما ذلك إلا من دس بعض المبغضين في هذا الجانب، ليضلل به من اطلع عليه من جهلة هذه الطريقة، فيحدثون بذلك الناس، فتقوم قيامة الإنكار على الشيخ البريء من تلك الكرامات وتلك الفضائل التي لا يقول بها فاضل عاقل، وبالبداهة لا يقبلها الغريق في الجهل من هذه الطريقة فضلا عن غيره.

ولقد بلغني أن ولد الشيخ رضي الله عنه سيدي محمد الحبيب، أو ولده سيدي البشير رحمه الله، جيء له بنسخة من هذا التأليف فأنكره وقال : هذه الكرامات وما انضاف لها من الفضائل لا نقبلها ولا نقول بها، وأمر بحرقه، وتبرأ من كل من وقف على نسخة منه وصدق ما اشتملت عليه، ومن ذلك جل المشاهد المنسوبة للخليفة سيدي الحاج علي حرازم برادة، فجلها مكذوبة عليه، حيث نسج على منوال مشاهده المسماة بالكنز المطلسم من لم يراقب المولى في أهل الخصوصية، فكتب جملة متفرقة على مقتضى هواه ونسبها إليه، وقد كنت وقفت على الكنز المطلسم بخط يده فلم أعثر فيه على شيء مما كنت أنكره(12)، مما أقف عليه من تلك المشاهد التي يظن من ظفر بواحد منها أنه حصل على طائل، وليس منها خير حاصل.

ولهذا يتعين على من يريد السلامة في هذه الطريقة من الإخوان وغيرهم أن لا يعتمدوا إلا ما حصلت لهم به الراوية الصحيحة عن أهل الخصوصية، والمعرفة التامة بما اشتملت عليه الطريقة، مما روي عن الشيخ وعن خاصة أصحابه خشية الوقوع فيما يقع فيه أهل الوقيعة في جانب أهل الله، وقد استشعر سيدنا رضي الله عنه بما منح من نور الفراسة والإلهام الحقي أنه سيكذب عليه فقال : إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع(13)، وهكذا قال الأئمة الأربعة وغيرهم من ذوي المناصب العالية، حتى لا يقع أحد في الضلال بما نسب إليهم، ويتعين على العاقل أن لا يعتمد إلا على ما صح لديه بالرواية الصحيحة، ولا يرمي ميزان الشريعة من يده، ومما أنشده الشيخ الأكبر ابن عربي قدس سره :

(11) حول هذا التأليف قال العلامة سكيرج في كتابه : جناية المنتسب العاني فيما نسبه بالكذب للشيخ التجاني ج 2 ص 64 : وقد وقفت عند بعض الإخوان في قبيلة بني يزناتن من دائرة مدينة وجدة، من الإيالة المغربية، وأنا متول لخطة القضاء بها، على تويلف في نحو كراسين، ذكر فيه مؤلفه بعض فضائل الطريقة التجانية، وما هو من الكرامات والفتوحات الربانية، مما رآه في نظره من المناقب المختصة بالشيخ التجاني رضي ا عنه، وبأصحابه العامة منهم والخاصة، ونوه غاية التنويه بصاحبي الشيخ رضي ا عنه السيد عبد المالك بوطيبة، والسيد عبد الباقي المرشدي، وأفرط غاية الإفراط فيما نقله عنهما من ذلك بعبارة عامية دالة على أن ذلك الكلام لا يصدر إلا عن جاهل بالطريق، أو أمي زنديق، أو مبغض في الشيخ وفي صاحبيه المذكورين، وفي طريقته الأحمدية، ليتداول العامة ذلك، فيقوم ضجيج الإنكار بما نسبه إليهم من تلك التقولات، التي هي من قبيل الترهات والتهورات، التي تشغل الأفكار، وتشتعل بها نار الإنكار.

(12) انظر جناية المنتسب العاني للعلامة سكيرج ج 2 ص 56-61.

(13) انظر الإفادة الأحمدية للبركة سيدي الطيب السفياني، باب حرف الألف، وفي كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 177، ونص هذا القول : إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع، فما وافق فخذوه، وما خالف فاتركوه.

لا تغترر بالذي زالت شريعته   عنه ولو جاء بالأنبا عن الله

ومن كلامه أيضا في فتوحاته المكية : من أراد أن لا يضل فلا يرمي ميزان ظاهر الشريعة من يده طرفة عين، ويعتمد ما عليه الأئمة المجتهدون ومقلدوهم ويرفض ما عداه، وإذا تحقق بأن الشيوخ غير معصومين فلا غرابة إذا صدر منهم ما لا يقبل منهم شرعا، وإن كان الأولى بالعالم التسليم وعدم الإنكار لعدم إحاطته بأصول الشريعة وفروعها، وسيأتي زيادة نقل عن الشعراني عما يتعين في حق من يريد الإنكار، عند التعرض للجواب عن السؤال الثاني من هذه الأسئلة، وبه يزن الموفق نفسه، وليختر ما يحلو لنفسه بين أبناء جنسه، بعدما تحقق بأن الأولياء غير معصومين.

ولقد ذكر الشعراني في المنن العجب العجاب من هذا الباب، حتى قال في بعض المطالب : فعلم أن العصمة شرط في النبوة لا في الولاية، وذلك لأن الأولياء دعاة بواطن وأسرار، والأنبياء عليهم السلام دعاة علانية وإظهار، فيجب عليهم إظهار المعجزة والتحدي بها لقيام الحجة على المعاندين والكفار، لأنهم يدعون الناس بحكم الإستقلال، بخلاف الأولياء فإنما يدعون الناس بحكم الإتباع لنبيهم بشرعه الثابت المقرر الذي لا شك فيه، إلى أن قال : وقد تقدم في هذه المنن عن سيدي الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنه أن شخصا من الأولياء نام عنده فزنى بجاريته تلك الليلة، ثم اغتسل وخرج يمشي على الماء في بحر الإسكندرية، حتى غاب عنه، فقال له : ما هذا وذاك، فقال : هذا عطاؤه وذاك قضاؤه، ومن هنا قال الجنيد رضي الله تعالى عنه لما قيل له أيزني العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدرا مقدورا، والحكم للسوابق لا للواحق، وفي هذا كفاية.

المقصد الثاني

في التنبيه على أن المريد لا تلزمه متابعة الشيخ في جميع أفعاله وأقواله وأحواله إلا إذا أمره بذلك

لم يبلغنا عن شيخنا القطب التجاني رضي الله عنه أنه أمر أصحابه والآخذين عنه أن يقتدوا به في أقواله وأفعاله وسائر أحواله، بالخروج عن المذهب الذي تقلدوه من بين المذاهب الأربعة والعقائد السنية، بل الثابت عندنا أن الفضل المقرر فيها بفضل الله طبق ما واعده به الرسول عليه السلام يناله كل من أذنه في تلاوة أذكارها من ورد ووظيفة وذكر جمعة بشروط ذلك لا غير، فإن هذه الطريقة مبناها على القيام بأذكارها اللازمة المذكورة بعد المحافظة التامة على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، بقدر ما في الإمكان، في السر والإعلان.

وملاك الخير كله هو في أداء الصلوات المفروضة في غاية الإتقان لجميع شروطها، والإهتمام بها في سائر الأحيان، ثم ما زاد على ذلك فهو فضل بقدر اتباعه في مجاهدته في العبادة وإخلاص النية، وتطهير الطوية، والصدق في معاملة الحق والخلق، والتخلي عن كل مذموم، والتحلي بكل محمود، إلى غير ذلك مما كان يوصي به أصحابه حتى لا يكونوا من الآمنين لمكر الله، فإن التأدب مع الحق تعالى من المريد يكون على قدر اقتباس أنواره من مشكاة الإقتداء به، وقد قال الشيخ سيدي علي الخواص(14) رضي الله عنه : من زعم أنه يتأدب مع الله تعالى بلا واسطة شيخه أو رسول الله (ﷺ) فقد أساء الأدب، ثم لا يتم ذلك له، أو لا يستمر على الدوام معه، بخلاف الأدب مع الله تعالى مع شهود الوسائط فإنه يدوم، وذلك مما يدل على محبة المريد لشيخه، التي هي المغناطيس الجاذب لترقي المراتب، وفيه من احترام الشيخ ما يقضي عليه بإمداده بالمدد الأوفر، سيما وحرمة الشيخ من حرمات الله، قال الحاتمي قدس سره :

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدبا لله بالله

ولهذا يتعين القطع بما صح عن الشيخ أو الولي على المريد ليتمكن بصدقه في مقام التصديق، ثم إنه لا ينقطع المريد عن طريقته إلا بنقض العهد الذي لم يؤذن له في أذكارها اللازمة إلا بأخذه عليه مشافهة، بالتلقي عنه أو بواسطة المقدم الذي قدمه للتلقين، أو بواسطة المقدم الذي قدمه مقدمه بالإذن المقيد أو المطلق فيها، ولا ينقطع عنه مددها إلا بذلك، وربما طرأ ناقض في الحين مثل الردة نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والدين، وهنا أمور تقضي بالمريد للإنقطاع إن صدر منه شيء منها، وقد بينت في كتب الطريقة فليراجعها من أراد الإطلاع عليها فيها، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

المقصد الثالث

في كون المريد لا يكون مريدا ولا يعد في زمرة شيخه إلا بتحقق المحبة الداعية لتصديقه

قد أجمع الشيوخ سلفا عن خلف أن المريد كيف ما كان لا يكون انتفاعه بشيخه إلا بصدق محبته فيه، حتى قال أهل الكمال منهم : ليس الشأن أن يحبك المخصوص، وإنما الشأن أن تحبه، لأن المحبة تقضي بامتثال ما يأمر به المحبوب، واجتناب ما ينهى عنه في حضرته وغيبته، قيد حياته وبعدها، وبصدق المحبة يمكن للمحب أن يجذب إليه عطفة محبوبه، لما تقرر عند العارفين من أن مغناطيس المحبة جاذب لحديد القلوب، وتنفعل النفس به انفعالا، بمصادمة القوة الجاذبة والقوة السالبة، على حسب الهوى المتمكن فيها بجاذبية الإتصال، أو سالبية الإنفصال، فتبرق عند ذلك بارقة مزن الأرباح لمخلص المحبة، ولا تتم تلك الخاصية المغناطيسية إلا بإلقاء الإنقياد للمحبوب، وهو الملائم لطبع المحبة الذي لا بد منه للمحب في تحصيل المطلوب، وذلك بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وإلا عد ذلك من موانع الخاصية الجاذبية، والحكم في ذلك للطبع القوي في الجاذبية، فالحديد الرزين يجذب الضعيف من المغناطيس من غير توهين، وإن كانت الجاذبية في حقه متمكنة بالطبع، وكونها فيه هو الأصل، كالطرف الصغير من المغناطيس ينجذب للحديد لكون الحكم للرازنة. ومن هذه الحيثية تجلب محبة بعض المريدين قلوب بعض الشيوخ إليهم كما يجذب قلب الحبيب محبه فيشفق منه، ولا يقع ذلك في الغالب إلا إذا كان مستغرقا فيه، بحيث يكون واقفا عند أمره، ممتثلا له ولو في قطع نحره، ومن هذا الباب قول من قال :

---

(14) سيدي علي الخواص البرلسي، من أعيان الصوفية بمصر خلال القرن العاشر الهجري، وهو من أجل الشيوخ الذين أخذ عنهم العارف بربه سيدي عبد الوهاب الشعراني، وله رحمه ا مقالات سامية فيما يتعلق بالسلوك وآدابه ومتطلباته، إلى غير ذلك من الكشف الصريح، والفتح الكبير الفسيح، مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب، وقد توسع العلامة الشعراني في ترجمته في كتابه الطبقات الكبرى ج 2 ص 150-169.

ولو قيل طئ في النار والنار جمرة — لها لهب يرمي الشرارة كالقصر
لما كان لمح البرق أسرع أن يرى — بأسرع مني في امتثالي للأمر

وللمحبة دخل في ارتباط القلوب ولو مع بعد، ولهذا يوجد في بعض الأحيان سؤال الحبيب المشعر بمحبة محبه عما أثرت محبته فيه، ومن هذا الباب قول من قال :

قالت وقد سألت عن حال عاشقهــا — بالله صفه ولا تنقص ولا تـــزد
فقلت لو كان رهن الموت من ظمأ — وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

ولهذا كان (ﷺ) يحث على محبته ويرغب فيها تصريحا وتلويحا، كقوله (ﷺ) : أنت مع من أحببت(15). وقوله : المرء مع من أحب(16). وقوله عليه السلام : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله ووالده وولده والناس أجمعين(17). وغير ذلك، لأن المحبة تقضي بالمتابعة كما قال تعالى : "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"(18). وفي هذه المقام أنشد الشيوخ :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه — هذا محال في القياس شنيع
لو كان حبك صادقا لأطعته — إن المحب لمن يحب مطيع

ولا شك أن المريد إذا تمكنت محبة الشيخ من قلبه فإنه يكون حريصا على متابعته متابعة الظل لشاخصه، لأن المحبة قاضية عليه بذلك، بقدر تجليها واستيلائها على قلبه في حضرته، وهنالك تفاوت بين المدعين لمحبته، وعلى قدر الإتباع يكون الإنتفاع، ولا يصح من المريد الصادق أن يتوقف عندما يأمره شيخه بشيء أو ينهاه عنه، وقد تقرر عند القوم قاطبة على أن من قال لشيخه : لا أفعل أو لا أترك، أو لم هذا مثلا فإنه لا يفلح أبدا، لكون ذلك لا يصدر منه إلا عن قلة اعتقاد ورعونات نفسانية توجب طرده من حضرة أهل الله، نسأل الله السلامة والعافية.

---

(15) رواه الإمام البخاري في كتاب الأدب، باب علامة الحب في ا عز وجل، رقم الحديث 5816-5817.
(16) رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي ا عنه، رقم الحديث 3485، وكذلك في كتاب الأدب، باب علامة الحب في ا عز وجل، رقم الحديث 5819.
(17) رواه الإمام البخاري في كتاب الإيمان، باب حب الرسول (ﷺ) من الإيمان، رقم الحديث 15.
(18) سورة آل عمران، الآية 31.

ولهذا يجب القطع بكلام الشيوخ الذين ثبتت خصوصيتهم بالشهادات المستفيضة ممن اجتمعوا بهم أو تلقوا ذلك عنهم بوسائط لا يشك المريد في عدالتهم وصدقهم، وليس كل من يدعي المشيخة أو من تلقى عنهم ذلك بمقبول في كل ما يقول، لأنه قد يصدر منهم ما نهت عنه الشريعة، مما هو في ظاهر الحال من الأمور الشنيعة، فلا يمكن لحراس حضرتها إلا المدافعة عنها والطعن في مخالفيها، وفي قضية سيدنا الخضر وسيدنا موسى عليه السلام عبرة لمن اعتبر، فلو أمكن لصاحب الشريعة أن يسكت لسكت سيدنا موسى عليه السلام فيما فعله بحضرته سيدنا الخضر. بعد أن أخذ عليه العهود على متابعته، ومع ذلك فقد أنكر ذلك بما لديه من علم الشريعة الظاهرية، لا بلسان الجحود والبغض المؤدي إلى ما لا تحمد عقباه في الدارين. ولم يمكن لسيدنا الخضر عليه السلام أن يخفي ما فعله بحضرة سيدنا موسى مع علمه بأنه نبي الله، لأنه مغلوب بالحال على أمره ونهيه، والله غالب على أمره، فإنه سبحانه أرشد صاحب الشريعة ليأخذ عن صاحب الحقيقة، ولو صبر صاحب الشريعة معه لرأى من العجائب ما يزداد به عبرة. ولذلك قال رسول الله (ﷺ) : رحم الله أخي موسى لو صبر(19). فإن ما يصدر من العارفين كله من هذا القبيل عند أهل الحق، وإن لم يقبل التأويل فإن التفويض فيه أسلم لمن يريد السلامة لنفسه في دينه ودنياه.

وأقل ما يجنيه على نفسه المنكر الجاحد عدم انتفاعه بمعارفهم(20)، والتخلق بأخلاقهم التي هي في غاية ما يكون من التهذيب بالأدب اللائق بالعبد في معاملة الحق والخلق، وكفاه ذلك حرمانا نعوذ بالله من الخذلان، وقد آن لنا أن نشرع في الأجوبة ذاكرا كل سؤال بلفظه، وبعده جوابه، وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

السؤال الأول :

وهو أنه : ما من أحد يؤخذ منه ويرد عليه إلا مولانا رسول (ﷺ) فيجب القطع بكلامه عليه السلام، وأن كلام الأولياء رضي الله تعالى عنهم مظنون. فهل على المريد التجاني شيء إذا قطع بكلام سيدنا الشيخ رضي الله تعالى عنه، سيما وهو يعلم أن الإعتقاد بكل ما جاء به شرط من شروط الطريقة الغراء ؟

---

(19) رواه الإمام البخاري في كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل : أي الناس أعلم ؟ فيكل العلم إلى ا ، رقم الحديث 122، وهو حديث طويل، وفي آخره قوله (ﷺ) : يرحم ا موسى لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما.

(20) في هذا المعنى يقول شيخ الإسلام العارف بربه سيدي زكرياء الأنصاري رضي ا عنه : الإعتقاد إن لم ينفع لا يضر، والفقيه إذا لم يكن له إلمام بطريقة القوم وملاحظهم واصطلاحهم ومؤاخذاتهم فهو جاف.

الجواب :

اعلم أن المريد لا يكون مريدا صادقا إلا إذا كان مصدقا لشيخه في جميع ما يخبره به، ويقطع ويجزم به إذا كان الشيخ في حال صحو لم يعتره حال من جذب أو شطح، لأن الشطح من نقصان السلوك، فيسلم لصاحبه حاله، ولا يقتدي بالمجذوب ما دام مجذوبا، ولا يتعين على مريده الجزم بما يخبره به حال جذبه، أما إذا كان في حال صحو فيجب على مريده الجزم بما أخبره به، ولا يشك فيه، ولو كان ذلك مما تحيله العقول في نظرنا، لأن الشيوخ قد صفت مرآة نفوسهم، وارتحلت أرواحهم إلى عوالم أخرى في درا الدنيا ودار الأخرى، فيرون ما لا نرى، ويسمعون ما لا نسمع، ويعقلون ما لا نعقل. وكل شيء عندهم في حيز الإمكان، إلا شيئا واحدا وهو وجود الشريك مع الحق، فلا يمكن وجوده، وهم في حال لا يمكن معها أن يختلقوا فرية تقضي بطردهم من حضرة الحق، فإن الكاذب ملعون ولو كان في كذبه مازحا، وإن كانوا غير معصومين فإن حضرة الحق مفتحة الأبواب للمصدقين، ولعنة الله على الكاذبين.

ولهذا كان ضرر التكذيب في حق أهل الله مما يسجل على صاحبه بالحرمان من الخير الكثير، إن سلم المكذب من الوبال في العاجل والآجل. وقد نصح صاحب موسى عليه السلام قومه في قصته معهم في قوله تعالى : "إن يك كاذبا فعليه كذبه، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم"(21). ومنشأ الإنكار على المخبرين بالعجائب هو التوغل في الجهل، والتقيد بقيد العقل، والوقوف بالجمود على مبلغ علم هذا المنكر الذي يعد في زمرة المحصورين في قفص جهلهم المركب، وغالبا ما يقع الإنكار إلا من أهل الجحود بما أصيبوا به من داء الحسد ونحوه(22)، فيقلدهم من ضرب في صدره بسهم أصمى قلبه، وأصم أذنيه عن سماع الحق وقبول الحق الواضح نوره، ولنفرض لذلك أمثلة محسوسة تظهر بها مزية المرتقي في المعارف عن غيره. ألا ترى إلى البالغ إذا قال لمن سأله من الصبيان عن لذة الإنزال في الوطء ليصفها له فيقول : هو شيء لا يبلغ معرفته إلا من بلغ وذاقه، فهو أحلى من العسل بل أحلى من شيء لا أقدر أن أعبر لك عنه، فإنه يحصل بذلك العجب لذلك الصبي، ولو بلغ من العلم الدرجة القصوى، لأنه لم يدرك هذا الأمر، ولا يدركه إلا البالغ، فكذلك إذا أخبر المفتوح عليه بشيء عجيب فإنه لا تقبله عقول الجهال، ويبادرون بالإنكار على المخبر بذلك.

ولقد كنا نكذب بما نسمعه من غرائب الأفعال الناشئة عن الإحتكاك الكهربائي، حتى كنا نقول باستحالة مثل ذلك في الوجود، حتى شاهدنا من عجائب فعلها ما كاد أن يصير من قبيل الأمر الذي لا يستعجب منه إلا البله ومن في سذاجة البلادة والبداوة، ولا زلنا نسمع عنها وما يصدر منها ما يكاد أن نستحيله أيضا، ثم نراه ونسمع بأعجب. ألم يكن في قدرة الحق أن يجعل في الأولياء خاصية تفوق الكهرباء، أو بالأقل تماثل خاصيتهم خاصيتها، فيقول الولي في هذه الساعة وهو بثغر الجديدة مثلا : سمعت سيدي فلانا بالإسكندرية يقول كذا وكذا، وفعل كذا وكذا ونحو ذلك. ونحن نرى التيلفون اللاسلكي ونسمع كلام أهل باريز ولندن وبرلين وغير ذلك بتحقق لا شك فيه، فلا شك أن المكذب بمثل ذلك جاهل أو معاند منكر للمحسوسات، فكيف يليق به وهو يدعي أنه عاقل أو عالم أن يجحد صدور مثل هذه الأمور في حق الأولياء وينكرها، ولو كان له مسكة من العلم الحقيقي ما أنكر ما يقبله الوجود مما هو داخل في دائرة الإمكان، ولذلك لا يلزم من الرد على الصوفية فساد قولهم في نفس الأمر كما

---

(21) سورة غافر، الآية 20.

(22) غالبا ما يصدر الإنكار حول الطرق الصوفية من طرف أشخاص تغلب عليهم الرعونات النفسية من حسد وتكبر وغطرسة وما إلى ذلك، بحيث إذا ظهر للمنكر أن الصواب ليس معه سارع إلى المراوغة والتمويه بدل الإذعان للحق والإستسلام له.

وهذه من الرذائل المذمومة التي قضت على الكثير من المنتقدين الذين لا ينتقدون إلا من أجل الإنتقاد، انطلاقا من قولهم : خالف تعرف، وكان من الأولى لهذا المنتقد الرجوع إلى الحق عند ظهوره، وهذا بمقتضى قوله تعالى : "أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى".

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله : كنا ننكر على القوم أمورا حتى وجدنا الحق معهم، قال تعالى : "بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله"(23)، وقال تعالى : "وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم"(24).

قال القطب الشعراني رضي الله عنه : ومما يؤيد كلام الغزالي رحمه الله قول الإمام أبي القاسم الجنيد رحمه الله : كانت عندي وقفة في قولهم : يبلغ الذاكر في الذكر إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يحس، إلى أن وجدنا الأمر كما قالوا. ولذلك يتعين في حق المشفق على نفسه أن يباعد نفسه عن الإنكار، ومن دأبهم الإنكار بحق أو باطل، وليبق على الحياد بالتسليم لأهل الله وإن لم يعمل بما قالوا أو فعلوا، ولا يكذبهم ليكون ممن أسلموا وسلموا. قال القطب الشعراني رحمه الله : أخذ علينا العهود أن لا نكذب الصالحين إذا أخبرونا عن أنفسهم أنهم وقع لهم شيء تحيله عقولنا، ما لم يعارض النصوص الشرعية، وذلك أن غاية الصالح أنه أخبرنا عن القدرة الإلهية أنها فعلت ممكنا لا غير، والله على كل شيء قدير، وقد جاءني أخي الشيخ أبو العباس الحريثي(25) رحمه الله يوما فصلي عندي المغرب، ثم جلس يقرأ القرآن، فقرأ إلى آذان العشاء خمس ختمات، ثم إني أخبرت بذلك سيدي علي المرصفي(26) رحمه الله فقال : أنا قرأت في يوم وليلة ثلاثمائة ألف ختم وستين ألف ختم، فقلت سيدي بالحروف، قال : نعم، فقلت له : كيف ؟ فقال : إذا تجردت الروح عن هذا الجسم الكثيف فعلت ذلك، فقلت له : فما الحكمة في وقوع ذلك للأولياء ؟ فقال لشرف قدرهم عنده، فإن أعمار هذه الأمة قصيرة فأقدر الله عز وجل خواص هذه الأمة على فعل ما ذكرنا ليرجح أحدهم في الأعمال على عبادة الأمم السالفة الذين عاشوا الخمسمائة سنة، والله تعالى أعلم.

---

(23) سورة يونس، الآية 39.

(24) سورة الأحقاف، الآية 11.

(25) أبو العباس أحمد الحريثي، من أعلام الصوفية بمصر، أخذ عن الشيخ سيدي محمد بن عنان، والولي الصالح الشيخ سيدي علي المرصفي، وعنه أخذ جم غفير من الناس، وهو من جملة المشايخ الذين أخذ عنهم وانتفع بهم العارف با سيدي عبد الوهاب الشعراني، توفي رحمه ا بمدينة دمياط بمصر عام 945هـ، وقبره بها ظاهر يتبرك به، انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج 2 ص 170.

(26) علي نور الدين المرصفي، صوفي مشهور، له عدة مؤلفات في علم التصوف، من جملتها اختصاره لرسالة القشيري، وهو من أهم المشايخ الذين أخذ عنهم العارف با سيدي عبد الوهاب الشعراني، توفي رحمه ا عام 931هـ، ودفن بزاويته بقنطرة الأمير حسين بمصر، وقبره ظاهر مقصود يتبرك به، انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج 2 ص 127.

ومن هذه الحيثية قد يمنح الله بعض الأولياء بخصائص على طريق الإلهام، ينالون بها من فضل الله ما لا تحمله إلا عقول أهل التسليم، ممن قدر لهم الإنتفاع بها أو بفضل الإعتقاد من غير انتقاد، فيصرح بها الولي لينفع الله بها من صدقه بعد انتفاعه بها هو في خاصة نفسه، وربما صرح بتزكية نفسه ليتلقى ذلك عنه بالقبول، فلا يقبل ذلك منه إلا من كان من أهل تلك الخاصية الكبرى، قال في العهود : وكثيرا ما يبين الشيخ في الطريق أو المدرس في العلم مرتبته للناس ليأخذوا عنه العلم، فلا يجوز نسبته إلى الرياء والسمعة. وكان سيدي علي الخواص يقول : ما أحوج الشيخ إلى تزكية نفسه إلى المريد الأعمى القلب، ولو أنه كان في قلبه نور لعرف مقام الشيخ في العلم، وأخذ ما يسمع منه بقبول وإيمان، وقد زكت الأكابر أنفسها لأغراض صحيحة، "قالت الملائكة : ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"(27). "وقال يوسف : اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم"(28). وقال سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر(29)، والغرض الصحيح أنه (ﷺ) قصد بإعلام أمته بمقامه يوم القيامة إراحتهم من التعب حين يذهب الناس من نبي إلى نبي يطلبون منه الشفاعة، وذلك لأن من علم أن محمد (ﷺ) أول شافع يوم القيامة لا يذهب لغيره حين يذهب الناس، والله أعلم.

وعدم القطع بما أخبر به الشيوخ لا يقع كثيرا إلا من ذوي النفوس التي حجبتها رعوناتها، فلم تصفو مرآتها من صدى الأوهام، فلم يتجل الحق لها في مظهر من مظاهره المقبولة عند أهله، فقطع الله حبلهم من حبله، وهم يظنون أنهم على شيء، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وغالبهم المتفقهون منهم، فتسول لهم أنفسهم أنهم صاروا في منزلة أعلى من منزلة الولي الذي أرشدهم، وربما أنكروا عليه فانقطعوا عن حبله. فلم ينفعهم الله بها عملوا أو لا ينفعهم بما يعملون ويعلمون، ولذلك يتأكد في حق الشيوخ أن لا يأخذوا العهد على المريد إذا كان ممن يتعاطى العلم إلا إذا استأنسوا منه صدق محبته في جانبهم، ويرون منه تنزله عن منزلة التعاظم بما لديه من العلم، قال في العهود : أخذ علينا العهود أن لا نأخذ العهد على أحد إلا إن علمنا أنه يرى نفسه دوننا في العلم، أما من يرى نفسه فوق شيخه فلا ثمرة لأخذ العهد عليه إلا زيادة الرعونات النفسية، وربما أمره شيخه بأمر فخالفه، بل رأيت مريدا خالف الأدب فهجره شيخه، فهجر الآخر شيخه، وصار يقع في عرضه، فقلت له : قد سمعتك بالأمس تقول : ما أعددت نفسي مسلما إلا حين اجتمعت بالشيخ، فقال : كان إبليس راكبني الخ.

وقد رأينا نحن في طريقتنا التجانية جماعة حصل لهم مثل ما حصل لهذا الشخص الذي ركب عليه شيطانه، فادعوا أنهم علماء، ونقضوا الصحيفة، وبينوا شرا في حق هذه الطريقة المنيفة،

(27) سورة البقرة، الآية 30.
(28) سورة يوسف، الآية 55.
(29) تتمة هذا الحديث : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر. رواه الترمذي في جامعه، وابن ماجة في سننه، والإمام أحمد في المسند، وكلهم بالسند عن أبي هريرة رضي ا عنه، وذكره الحافظ السيوطي في الجامع الصغير ج 1 ص 107.

وقطعوا الحبل الذي كان بينهم وبين الشيخ رضي الله عنه، فانقطعوا وصاروا من أقبح المنكرين فيها، بما اطلعوا عليه من أفعال بعض جهلة السالكين فيها، ولم يقفوا عند ما علموه من صدق حال الشيوخ المرشدين والأولياء المهتدين رضي الله عنهم، بل قاد انتقاد المنكرين إلى ما لا تحمد عقباه بإنكارهم أولا على جهلة الطرق، ومن في حكمهم من أعلام السوء، أصحاب الأغراض الذين لم تخلو منهم طريقة ولا مذهب من المذاهب، لما ولعوا به من التظاهر بين العامة بالمغربات التي تميل بها قلوبهم إليهم، فنسبوا لشيوخهم ما هم بريئون منه، وعلى فرض أنه صدر من الشيوخ ما لا يقبل شرعا فغالبهم إن لم نقل كلهم حذروا أتباعهم بما يرونه منهم أو يسمعونه عنهم من الإقتداء بهم فيما تطيش به كفة ميزان الشريعة، التي لا يدنسها الإبتداع، ولا يدانيها في حضرات الحق اختراع.

وقد أخذ الله بأيدي من أراد بهم خيرا ممن صدقوا الله في الإنكار على أهل الأسرار، فشعروا بالمكر الإلهي المحيق بالمنكرين، فرجعوا على أنفسهم بالملامة، وتابوا من كل ما صدر منهم، فنالوا بالتوبة النصوح ما فاقوا به غيرهم، ولم يقع غالبا في عين القطيعة ويبقى غريقا فيها متجلجلا بأوهام الأهواء إلا كل من يظن نفسه أنه عالم يقتدى به، فيحب التظاهر بين الناس مع الظهور بالغلبة على غيره، ولا يبالي بما يقع فيه من المكر الخفي، خصوصا إذا كان ذا شقاشق يجول بها في كل مجال، وخلا له الجو بين العوام ومن في معناهم، وهذه عادة من سجل عليهم بطابع الحرمان من قديم، وقلما سلم منهم أحد، وبالأخص إذا انتصروا لأهوائهم، فلا تسل عما يصدر منهم وممن خالطهم، لأنه يسرق طبعهم طبعه فيقع فيما وقعوا فيه. ولذلك قال سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه : مجالسة المبغضين سم يسري، فلا ينبغي للمريد الصادق أن يجالسهم أو يذكر اسم ولي من الأولياء بمحضرهم، خصوصا إذا كانوا ينكرون عليه.

وقد قال الشعراني رحمه الله : أخذ علينا العهود أن لا نذكر أحدا من الأولياء الذين تكلم الناس فيهم إلا بحضرة من يعتقدهم، وإذا نقلنا عنهم أدبا أو حكمة قلنا : قال بعضهم كذا ولا نعينه، فإن من ذكر كرامات الأولياء بين يدي من ينكر عليهم فقد تسبب لمقت ذلك المنكر وسب ذلك الولي وتنقيصه، فحكمه حكم من ذكر فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بين الروافض مع عدم أمنه من سبهم لهما إلخ ... ولا ينبغي مجادلة المخذولين من أهل الإنكار، ومن عمل على شاكلتهم من الأشرار، إلا لمن أقدره الله على الإفصاح عن وجه الحق بالبيان التام، الذي لا يبقى معه إيهام، حتى لا يحصل به الضرر على العوام، إذا غلبه خصمهم بما يلقيه من الإيرادات التي ربما حصل له في الجواب عنها إفحام، لقصور باعه، أو تمالئ حزب المنكرين عليه، أما من منحه الله من لدنه فهما ثاقبا وعلما صحيحا مؤيدا بالتوفيق فالمتعين في حقه المدافعة عن حمى أهل الله بقدر الإمكان، ولا يبالي بتحزب المبغضين ولو تحزبوا عليه وترصدوه بكل مكان.

قال القطب الشعراني رضي الله عنه : أخذ علينا العهود أن نجيب عن أئمة الإسلام من العلماء والصوفية جهدنا، ولا نصغى قط لقول من طعن فيهم، لعلمنا بأنه ما طعن فيهم إلا وهو قاصر عن معرفة مداركهم، ثم إن الراد عليهم لا بد أن يطفئ نوره ويعدم النفع بمؤلفاته كلها، لسوء أدبه مع من جعلهم الله قدوة لعباده إلى يوم القيامة، وأين رتبة بعض الناس من رتبة الإمام الأعظم أبي حنيفة

رضي الله عنه حتى يرد عليه أقواله، وأين رتبة ابن الجوزي(30) من رتبة معروف الكرخي(31) والجنيد والشبلي(32) وأبي يزيد البسطامي وسهل بن عبد الله التستري ونحوهم من السادة رضي الله عنهم حتى يرد عليهم، ويقول في كتابه المسمى بتلبيس إبليس : ولعمري لقد طوى هؤلاء الصوفية بساط الشريعة طيا، فيا ليتهم لم يتصوفوا، وقال في موضع آخر من كتابه المذكور : ولقد تعدى هؤلاء طور الجنون بطبقات، وصرح فيه أيضا بتكفير السيد أبي يزيد البسطامي وسهل بن عبد الله التستري والشبلي والغزالي وجماعة، وهو عجيب، فإن هؤلاء من أعظم أئمة القوم الجامعين بين الحقيقة والشريعة، مع أنه رحمه الله قد طرز جميع مؤلفاته من كتب الرقائق بمناقبهم وحكاياتهم، ولعل ذلك وقع منه في بدئ أمره، أو دس عليه في ذلك المؤلف.

واعلم يا أخي أنه لم يبلغنا قط عن أحد من العلماء العاملين أنه تصدى للرد على أحد من أئمة الإسلام، بل ينتحلون لهم الأجوبة الحسنة جهدهم كما صنع الشيخ العالم المحقق جلال الدين المحلي(33) في شرحه لمنهاج النووي، فيحمل كلام المؤلف على أحسن الأحوال من غير إظهار تورك عليه ولا تعصب، حتى إن غالب طلبة العلم الآن لا يشعرون بالجواب عن النووي، فرضي

---

(30) عبد الرحمان بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، مؤرخ، فقيه، محدث، ولد ببغداد عام 508هـ، بها توفي عام 597هـ، له نحو 300 مصنف، منها تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار، والوفا في فضائل المصطفى، ومناقب بغداد، وفنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ومناقب عمر بن عبد العزيز، ومناقب أحمد بن حنبل، ومناقب عمر بن الخطاب، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، وغيرهم. وهو من المبالغين في الإنكار على الصوفية والتشديد عليهم والرد على أقوالهم وأحوالهم وما إلى ذلك.

انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 279، وفي مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج 1 ص 207، وفي البداية والنهاية لابن كثير ج 13 ص 28، وفي الأعلام للزركلي ج 3 ص 316، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 429 رقم الترجمة 938. وفي فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 308-310 رقم الترجمة 132.

(31) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، صوفي مشهور، عرف بالورع والزهد والإستقامة، وهو من موالي علي بن موسى الرضا، توفي رحمه ا ببغداد عام 200هـ، وبها دفن، وقبره ظاهر يتبرك به، انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج 1 ص 72 رقم الترجمة 142، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج 2 ص 104، وفي طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمان السلمي ص 83-90، وفي صفة الصفوة لابن الجوزي ج 2 ص 179، وفي الأعلام للزركلي ج 7 ص 269.

(32) أبو بكر بن جحدر الشبلي، صوفي مشهور، أصله من بلاد خراسان، ولد ببغداد عام 247هـ، وبها توفي عام 334هـ، ودفن بمقبرة الخيزران، وقبره بها ظاهر مقصود للتبرك،، وله في التصوف أشعار ومقطعات جميلة، جمع بعضها الدكتور كامل مصطفى الشيبي تحت عنوان : ديوان أبي بكر الشبلي، انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج 1 ص 103 رقم الترجمة 204، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 180، وفي صفة الصفوة لابن الجوزي ج 2 ص 258، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج 3 ص 289، وفي الأعلام للزركلي ج 2 ص 341.

(33) سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا المجموع، وعنوان تصنيفه المذكور كنز الراغبين في شرح منهاج العابدين.

الله عن أهل الإنصاف، وقد شهد أئمة الطريق وعلماء الإسلام للجنيد والغزالي وغيرهما بأنهم أولياء الله تعالى، فمن حط عليهم فكأنه يريد أن يحجب ضوء الشمس عن أهل الأرض، ليس بينهما سحاب، أو كمن يريد أن يزلزل الجبال بنفخة ناموسة.

وقد شهد الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه للإمام أبي حامد بأنه من رؤوس الصديقين، وناهيك بهذه الشهادة من هذا السيد، وقد كان الشيخ محي الدين ابن العربي رضي الله عنه مع كثرة تبحره في العلوم الظاهرة والباطنة يطالع كتاب الإحياء ويستفيد منه ويجيب عنه أجوبة حسنة، وكفى بذلك شرفا ومنقبة للإمام الغزالي رضي الله عنه، وقد بلغ رضي الله عنه في علوم الشريعة الحد الذي فاق به أقرانه حتى لقب بحجة الإسلام، وكتبه الآن مرجع مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وبها الفتوى، وقد رأى بعض العارفين رسول الله (ﷺ) وهو يباهي بالإمام الغزالي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقال للسيد عيسى هل في أمتك حبر مثله ؟ فقال لا.

وقد أنكر عليه بعض علماء المغرب وحرق كتابه الإحياء، فرأى ذلك العالم(34) رسول (ﷺ) في المنام وهو يعرض عنه، ثم أمر بتجريده من ثيابه وضرب بين يديه (ﷺ) بسياط، فاستيقظ فوجد أثر السياط على جوانبه، ولم يزل ذلك الأثر في جوانبه حتى مات، فتاب ذلك العالم وأمر بكتابة كتاب الإحياء بماء الذهب رضي الله تعالى عنه(35)، وكان الحسن البصري يقول : إذا بلغك عن شخص أنه أخطأ في مسألة فاجتمع به، فإن أنكرها فصدقه ولا يجوز لك نسبتها إليه بعد ذلك، وإن لم تجتمع به فاحمل كلامه على سبعين محملا، فإن لم تقنع بذلك نفسك فارجع عليها باللوم وقل لها : يحتمل كلام أخيك سبعين محملا ولا تحملينه على محمل واحد منها، فعلم أنه لا يجوز لنا الحكم على أحد من أقراننا بمجرد كلام نسمعه عنهم، بل نتربص ونتثبت ونجتمع بهم، أو نراسلهم وننظر جوابهم، فإما أن يعترف ذلك الشخص به وإما أن ينكره، فإن اعترف به تعرفنا وجه الصواب الذي أراده، فإن رضيه العلماء قلنا به، وإن لم يرضوه وأنكروه جملة نظرنا، فإن رجع عنه تغاضينا عنه لرجوعه إلى دينه، وإن صمم على الخطأ فهناك يجوز لنا إشاعة ذلك الكلام عنه شفقة منا عليه وعلى من تبعه، لا بغضا له وتشفيا على وجه العداوة النفسية، وهذا الأمر قل من يفعله الآن من الناس، فإن غالب الأقران قد عمهم الحسد وكثرة الضغائن فلا يكادون قط يتثبتون في كلام سمعوه عن أحد من أقرانهم وأهل عصرهم، وذلك خوفا أن يتبين ذلك الكلام كذبا عنه فلا يحصل لهم غرضهم من الأذى لذلك الشخص، فهذا سبب ترك تثبتهم، وقد صار أكثر ما يسمع الإنسان في هذا الزمان الكذب من قلة الورع عن الخوض في أعراض الناس.

---

(34) المراد به الفقيه العلامة أبو الحسن سيدي علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد ا بن حرزهم، أحد كبار علماء فاس، توفي في شهر شعبان عام 559هـ، انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 162 رقم الترجمة 500، وفي النبوغ المغربي لعبد ا كنون ج 1 ص 90، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 262 رقم الترجمة 590، وفي نيل الإبتهاج للتنبكتي ص 198، وفي سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 3 ص 71-76، وفي جذوة الإقتباس لابن القاضي ص 464 رقم الترجمة 508.

(35) توسع في ذكر هذه الواقعة العلامة السبكي في كتابه : الطبقات الشافعية الكبرى عند ترجمة العارف با الفقيه حجة الإسلام سيدي أبي حامد الغزالي.

وقد كان سيدي عبد العزيز الديريني(36) رحمه الله إذا بلغه أن أحدا اغتابه يقول له : يا أخي مالك ولتحمل ذنوبي على ظهرك، يكفيك ما على ظهرك من أوزارك، قلت : وأقل ما في الوقيعة في أعراض الناس تحكمهم يوم القيامة في أعمال من وقع فيهم، فلو أراد الواحد منهم أن يقول لا يرضيني في تنقيصي إلا جميع أعماله الصالحة كان له ذلك، فمن رضي لنفسه أن يحكم مفلسا يوم القيام في أعماله فليس معه شيء من العقل، واعلم أنه قد يضع العالم في مؤلفه شيئا أو يقرره في تدريسه ثم يرجع عنه بعد ذلك أو في المجلس، فلا ينبغي لمتدين نسبته إليه حتى يراجعه فيه وينظر ما عنده في ذلك الوقت من العلم، وقد هلك في هذا الباب خلق كثير، فأشاعوا عن بعض المؤلفين أشياء رجعوا عنها، وحرفوا عليهم أشياء هم بريئون من اعتقادها والعمل بها، إلى آخر كلامه رضي الله عنه، وهو في غاية ما يكون من التحقيق، مع بيان وجه الحق بالنصح التام لمن يتطلب الوقوف على عين الصواب، ليشرب منها لذيذ الشراب، جازاه الله خيرا.

وقد نقلنا عنه في هذه الأجوبة وغيرها لموافقته لمشربنا بما منحه الله به من التعبير عما يختلج في الضمير، وهو إنشاء الله الحق الذي لا شك فيه، وبهذا يتضح لكل ذي قلب سليم أن المؤمن يتعين عليه ترك الإنكار على أهل الله، ويتثبت فيما ينسب إليهم من كل من لا يتحرى النقل عنهم، ممن سمع منهم مباشرة أو بوسائط، فإن آفة الأخبار رواتها، ويتأكد في حق المريد الصادق القطع بما أخبره به شيخه أو بلغه ذلك على لسان الثقة، مما لا تأباه الشريعة ولا يخل بمنصب قائله أو فاعله، وكل ما لا يقبله عقله ولم يمكن تأويله وثبت عن شيخه فليعرض عن الخوض فيه مع كل خائض، ولا يلتفت لكل معترض بهواه يعارض، ولا يضر المريد الصادق قطعه بصدق شيخه، لأنه هو المطلوب في حقه عند أول قدم يضعه في طريقه، ولهذا قال الشريشي(37) :

ولا تقدمن قبل اعتقادك أنه	مرب ولا أولى بها منه في العصر
فإن رقيب الإلتفات لغيره	يقول لمحبوب السراية لا تسري

وقد تقرر في الأصول أنه يتعين على المقلد لمذهب من المذاهب، بل يتعين في حق كل مكلف أن يعتقد أن مذاهب أهل الحق كلهم على هدى من ربهم وإن اختلفت آراؤهم، إلا ما كان من أهل الزيغ والأهواء الضالة، فهم في ضلالتهم يترددون، وفي ظلمات جهالتهم يهيمون، وإلى هذا أشار في إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة(38) ناظمها فقال :

---

(36) سيدي عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني، صوفي مشهور، نسبته إلى ديرين في غربية مصر، وله مصنفات كثيرة في التفسير والفقه واللغة والتصوف منها : التيسير في علم التفسير، والدرر الملتقطة في المسائل المختلطة، وإرشاد الحيارى، وطهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب، وكانت وفاته رحمه ا بديرين عام 697هـ، وقبره بها ظاهر يزار، انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ج 5 ص 75، وفي الطبقات الكبرى للشعراني ج 1 ص 202 رقم الترجمة 293، وفي الخطط التوفيقية لمبارك ج 11 ص 72، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 13.

(37) سبق التعريف به في هذا المجموع ج 1 ص 200.

(38) إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لناظمها العلامة المؤرخ الأديب أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني ومطلع هذه المنظومة :

يقول أحمد الفقير المقري	المغربي المالكي الأشعري

ومالك وأهل الإجتهاد كل إلى نهج الصواب هاد
كالشافعي وأبي حنيفة وأحمد ذي الرتبة المنيفة
وكلهم على هدى من ربهم وفرقة الجنيد دن بحبهم
فإنهم طريقهم مرضية قويمة لأهلها مزية

ومعلوم أنه لا يقتدي الشخص بمذهب، إلا بعد قطعه بأنه على حق لا شك فيه عنده ولا ريب، وإلا كان في ديانته على خطر عظيم، فلذلك تعين على المريد القطع بما أخبره به شيخه الذي اقتدى به في سلوك طريق وصوله إلى ربه، ولا يقال بعد التحقق بما قلناه من القطع لا سبيل إليه، لأنه لا يكون إلا من إخبار المقطوع بعصمته، وليس هنا نص منه يوجب القطع بما يقوله الشيوخ أو يخبرون به، لأنا نقول يكفي في الجواب عن هذا ما بيناه، وقد نص من يقتدى بهم أن هناك قرائن توجب القطع والجزم بالشيء، مثل القطع بكون الأئمة الأربعة ونحوهم على هدى من ربهم.

وقد وقفت في الأزهار العاطرة الأنفاس(39) على تنبيه يناسب نقله في هذا المحل، فإنه قال بعد كلام في تحقيق ولاية أبي العلاء مولانا إدريس(40) مؤسس مدينة فاس رضي الله عنه ما نصه : إذا كانت ولايته رضي الله عنه قطعية وكانت مجمعا عليها من أهل الظاهر والباطن كان رضي الله عنه من المقطوع لهم بالجنة كالجيلاني ونحوه، وعليه فإذا حلف شخص بالطلاق أو غيره أنه من الأولياء أو أنه من أهل الجنة فلا حنث عليه، كما يفيده ما ذكره شراح المختصر عند قوله في الطلاق : أو فلان من أهل الجنة أو النار(41)، وينجز عليه الحنث إلا أن يكون من المقطوع لهم بالنار كأبي لهب، أو الجنة كالعشرة ونحوهم من كل من أخبر عليه السلام بطريق صحيح أنه من أهل الجنة كعبد الله بن سلام(42) فلا حنث عليه، ومثل ذلك من شهد الإجماع بحسن الثناء عليه كعمر بن عبد العزيز على ما أفتى به ابن القاسم(43) ورجحه ابن رشد.

---

(39) الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس، للعلامة سيدي محمد بن جعفر الكتاني طبعت على الحجر بفاس سنة 1307هـ موافق 1889م.

(40) سبق التعريف به في هذا المجموع ج 1 ص 194.

(41) مختصر خليل بن إسحاق المالكي باب الطلاق ص 142.

(42) عبد ا بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، صحابي جليل، أسلم عند قدوم النبي (ﷺ) المدينة، وكان اسمه الحصين، فسماه رسول ا (ﷺ) : عبد ا ، وهو المراد بالآية الكريمة : "وشهد شاهد من بني إسرائيل"، وكذلك بقوله تعالى : "ومن عنده علم الكتاب"، توفي رحمه ا بالمدينة المنورة عام 43هـ، انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر رقم الترجمة 4725، وفي الإستيعاب لابن عبد البر ج 2 ص 382، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 90.

(43) أبو عبد ا عبد الرحمان بن القاسم العتقي المصري، أشهر تلامذة الإمام مالك وأثبتهم رواية عنه، ولد بمصر عام 132هـ، وبها توفي في شهر صفر عام 191هـ، أنظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 276، وفي حسن المحاضرة للسيوطي ج 1 ص 121، وفي الأعلام للزركلي ج 3 ص 323، وفي شجرة النور الزكية لمخلوف ص 58 رقم الترجمة 24، وفي الفكر السامي للحجوي ج 1 ص 516 رقم الترجمة 250.

قال العارف الفاسي وقس على عمر بن عبد العزيز سائر صالحي الأمة كالجيلاني والشاذلي والسبتي والغزالي والجزولي وابن مشيش وأبي يعزى ومن لا يحصى كثرة، فإن شهود النفع بهم يحصل القطع بخصوصيتهم وقربهم من ربهم، وسريان مادتهم ونورهم متيقن عند ذوي الأذواق والبصائر، ومن له أدنى مسكة من حياة حقيقية وشم وإدراك روحاني، وكذا سائر مشايخ كل زمان، وإنما ينتفع بالقطع بخصوصيتهم، وأما من كان على ظن أوشك فيهم فإنه لا ينتفع بهم، لأن مبنى النفع ومثاره على التصديق، وهو الأصل في الطريق، ومن حرم الأصل حرم الفرع، ولذا قيل : إنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول، وفي قواعد الشيخ زروق : قد تفيد الدلائل من الظن ما يتنزل منزلة القطع وإن كان لا يجري على حكمه في جميع الوجوه، كالقطع بإيمان مسلم ظهرت منه أعمال الإسلام. وكولاية صالح دلت على مقامه أفعاله وأقواله وشواهد أحواله، كل ذلك في علمنا من غير جزم بعلم الله فيه، لا في حق من جاءنا عن الله مخصوص له كالعشرة المشهود لهم بالجنة، أنظر تمام كلام العارف أبي محمد سيدي عبد القادر الفاسي(44) رضي الله عنه في جواب له في نوازله.

ثم اعلم أن الشيخ رضي الله عنه لم يلزم في طريقه أحدا من أحبابه أن يقطعوا أو يجزموا بما أخبرهم به من فضل الورد وغير ذلك مما منحه الله من المقامات التي غبطه فيها أكابر الأقطاب، كما أنه لم يثبت عنه الأمر باتباعه في طريقه بما اختاره لنفسه في سلوكه في عبادة الله من المذاهب التي عمل عليها في سره وعلانيته، فإنه رضي الله عنه قد تمسك بالمذهب المالكي وعليه نشأ من قبل اشتغاله بالسلوك في طريق الصوفية، ولا زال متمسكا بحبل هذا المذهب ولم يخرج عن تقيده به إلا في بعض المسائل التي خالف الإمام مالكا فيها لأمور اقتضاها اجتهاده، عاملا فيها بما أمره به النبي (ﷺ) بالقال والحال، ومع ذلك فإنه لم يأمر أحدا ممن تلقوا عنه إذنه في ورد طريقته بالخروج عن المذهب الذي هم متقيدون به والتقيد بالمذهب الذي هو سالك في مسلكه، وغاية ما يشترطه على المريد ما أمره به النبي (ﷺ) في مرائيه يقظة لا مناما من كون طريقته المحمدية لا تلقن مع أي طريقة، بل لا يؤذن فيها لمن عنده ورد آخر ولم ينسلخ عنه، ليتمكن سر أورادها في سره، بالإقبال في وجهة واحدة لوجه واحد، مع القيام ببقية شروطها المقررة، ولم يشترط على أحد الإقتداء به في سائر أقواله وأفعاله وأحواله، وإن كان اللائق بالمريد الصادق هو متابعته في جميع ذلك متابعة الظل شاخصه، ولكنه لم يقع منه أمر بذلك، لأن مبنى طريقته على القيام بالمأمورات واجتناب المنهيات بقدر الإمكان، مع المحافظة على الأذكار المنوطة بها طبق ما تلقى الإذن فيه من الحضرة المحمدية عليها السلام، وما زاد على هذا فإنما هو فضل على فضل، والله ذو الفضل العظيم.

---

(44) أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي، شيخ مشايخ العلم في وقته، انتهت إليه رياسة الفتوى بالمغرب، ولد في شهر رمضان عام 1007هـ، وتوفي بعد زوال يوم الأربعاء 8 شهر رمضان المعظم عام 1091هـ، ودفن بالزاوية المنسوبة إليه بحومة القلقليين من عدوة فاس القرويين، قال العلامة سيدي محمد بن جعفر الكتاني في سلوة الأنفاس في ترجمته : ولم يتصدر رضي ا عنه لتأليف كتاب مخصوص، ولا لشرح متن من المتون، وإنما كانت تصدر منه أجوبة عن مسائل كان يسأل عنها فيجيب، فيبدأ ويعيد، وهي موجودة الآن، جمعها بعض أصحابه فجاءت في مجلد، وهي من الفتاوي المعتمدة الخ ...
انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 314 رقم الترجمة 1226، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 334 رقم الترجمة 748، وفي النبوغ المغربي لعبد ا كنون ج 1 ص 283، وفي فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 763 رقم الترجمة 418، وفي عناية أولي المجد للسلطان مولانا سليمان ص 37-41، وفي خلاصة الأثر للمحبي ج 2 ص 444، وفي سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 309-314، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 41، وقد أفرده بالتأليف ابنه العلامة عبد الرحمان الفاسي تحت عنوان : تحفة الأكابر بمناقب الشيخ عبد القادر.

السؤال الثاني :

هل تمنع الشريعة المريد أن يقول مثلا : الشيخ رفع فلان إلى كذا وأعطاه كذا، أو منعه وخفضه إلى كذا، أو تصرف الشيخ في فلان المنكر بكذا وكذا وضربه وابتلاه بكذا وكذا ؟ وهل للمريد أن ينادي شيخه ويطلبه في أمور دينه ودنياه وآخرته، ويستنجد به ويستغيث ويطلب معونته في مآزق الشدة ؟ وإن كان كذلك فكيف نوفق بين هذا وحديث مولانا رسول الله (ﷺ) لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله أو كما قال ؟

الجواب :

هذا السؤال اشتمل على سؤالين بالجواب عن أحدهما يتضح الجواب عن الآخر، ويحتاج في تحقيق الجواب عنهما إلى تمهيد يتعين دائما استحضاره في مثل هذا الموضوع الذي أوجب انتقادات من علماء الظاهر على الصوفية وكل من نحا منحاهم فنقول :

يتعين على كل مسلم مؤمن بالله أن يجزم ويقطع أن لا فاعل إلا الله جل وعلا طبق العقيدة المقررة، وأنه لا شريك له في ملكه، يفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل، وأنه لا تصرف معه لأحد في إيجاد شيء أو إعدامه، لأنه سبحانه هو الفاعل المختار، وكل من ادعى تصرفا معه في خلقه لنفسه أو لغيره على سبيل الإشراك في شيء من إبرام أو نقض من بين سائر الموجودات فهو ضال مضل كافر بإجماع كل من قال لا إله إلا الله، وهذا كله معلوم من الدين بالضرورة، ثم بعد هذا نقول : إن تصرف العبد في ملك سيده بإذنه مما لا يتوقف أحد في جواز إطلاقه، مع التقييد بالإذن دفعا للبس على غير الموحد، وقد يسوغ بدونه في البساط الذي لا يخاف فيه فتنة السامع.

وقد اضطربت في هذا المحل أقوال العلماء، فمنهم من سد الباب خوفا من تضليل الخلق أو دفعا للوقوع في عرض المدعي للتصرف في الخلق لنفسه أو لغيره. ومنهم من فصل، ولكل مشارب، على اختلاف المذاهب، وكل على بينة من ربه، في بعده وقربه، يعامله الحق تعالى على قدر نيته في مناضلته عن الحق وحزبه، فإن الحق واضح عند أهله لا تلحقهم فيه شبهة ولا ريبة، وما بعد الحق إلا الضلال، فمن تحقق العقيدة السليمة الواجبة على الموحد للحق تعالى لا يضره التسليم لمن لم يبلغ مبلغهم وهم جل الصوفية المجيزين لمثل ما وقع السؤال عنه، خلافا لمن أنكر

عليهم في ذلك، وعاقبة الإنكار وخيمة، فقد كان سيدي علي ابن وفا(45) رضي الله عن شيخنا وعنه يقول : التسليم للقوم أسلم، وربما تنصر بعض المنكرين ومات على ذلك نسأل الله العافية، بنقل القطب الشعراني عنه في المنن، وقال في كتابه "البحر المورود في المواثيق والعهود" ما نصه : أخذ علينا العهود أن لا نمكن أحدا من إخواننا يبادر إلى الإنكار على من خالف نقل بعض العلماء إلا إن أحاط علما بجميع طرق الشريعة ولم يجد ذلك الحكم فيها، وهذا عزيز وجوده، كل ذلك سدا لباب الإنكار بغير علم، وقد روى الطبراني عن رسول الله (ﷺ) أنه قال : إن شريعتي قد جاءت على ثلاثمائة وثلاثة عشر طريقة، ليس منها طريقة يلقي العبد بها ربه إلا دخل الجنة، ثم قال : فإن كنت يا أخي عارفا بجميع هذه الطرق ولم تجد حكم ما أنكرته فيها فلك إنكاره، وإلا فالتسليم أفضل، والله تعالى أعلم.

ولقد وجدنا في كتب الصوفية والمعتقدين فيهم وكفى بهم سندا جواز مثل ما وقع السؤال عنه، فلا محظور فيه عند الموحدين، ولا خوف عليهم في دينهم، وهم السواد الأعظم من الأمة إلا من عاند في الحق بعد وضوحه، ولزيادة الإيضاح تعين علي في هذا المقام أن أقول : إن الحق تعالى سوغ للعبد أن ينسب لنفسه على طريق الكسب ما فعله، وأن ينسب لغيره ذلك أيضا، مع أن الفاعل في الحقيقة هو الله تعالى.

فإذا ساغ لك أن تقول : زيد قتل عمرا، والأمير ولى فلانا وعزل فلانا وأعطى فلانا، ونحو ذلك مما لا تداخلك فيه ريبة في اعتقادك ساغ لك أن تقول : الشيخ قتل فلانا وسلب فلانا ونحوها، سواء كان الشيخ أو الولي حيا أو ميتا، لأن الأولياء يتصرفون بإذن الله بهمتهم وبحالهم، وللهمة والحال بالكسب فعل وانفعال مطلقا، لا سيما من صفت مرآتهم بطاعة مولاهم، فكانوا من المخلصين لديه، فاصطفاهم بين خلقه، فهم به في حضرات الأفعال المطلقة بالتصرف التام في قيامهم مقام مولاهم، لكونهم العبيد الأحرار الذين تحققوا بمقام العبودية، وأعطوا العبودة حقها في عبادة مولاهم، ورضي الله عن الشيخ ابن عربي حيث قال :

إذا صحت عبودة كل عبد	تصح له السيادة في الوجود
فيحكم مثل سيده وتبدو	عليه بذاك أعلام المزيد
ويخبرنا لسان الحال عنه	بأن الأمر فيه من الشهود
له تعنوا الوجوه إذا تبدى	كما تعنوا الملائك للسجود
فيسمو رفعة وينال عزا	فيدعى بالمراد وبالمريد

---

(45) علي بن محمد بن محمد بن وفا القرشي الأنصاري الشاذلي المالكي، من خيرة أعلام الصوفية بمصر، ولد بالقاهرة في ليلة الأحد 11 محرم الحرام عام 761هـ، وبها توفي في شهر ذي الحجة عام 807هـ، وله رحمه ا مؤلفات نفيسة أغلبها في التصوف، منها : الباعث على الخلاص في أحوال الخواص، والوصايا، والعروش، والكوثر المترع في أحوال الأبحر الأربع، والمسامع الربانية، ومفاتيح الخزائن العلية، وديوان شعر، وموشحات.
انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج 2 ص 22-65 رقم الترجمة 315، وفي شجرة النور الزكية لمخلوف ص 240 رقم الترجمة 860، وفي الخطط التوفيقية لمبارك ج 5 ص 142، وفي الضوء اللامع للسخاوي ج 6 ص 21، وفي الأعلام للزركلي ج 5 ص 7.

وقال الحلاج(46) : بسم الله من العبد بمنزلة كن من الحق، وقال وهب بن الورد(47) وكان من الأبدال : لو قال بسم الله صادق على جبل لزال، وكلام القوم من هذا المعنى كثير، وهم أصدق الخلق مع الله حالا ومقالا بالوارثة عن المنوب عنهم من الأنبياء عليهم السلام في حضرة الولاية، فإن من الأنبياء عليهم السلام من أحيا الموتى، ومنهم من قال للشيء كن فكان، وذلك من مشرب الولاية الخاصة لا من مورد النبوة، فإن النبوة تقضي بالتشريع لا بالتصريف في الخلق، إلا إذا اقتضى ذلك داعي المعجزة فتظهر في محلها، كما تظهر الكرامة بدون تحدي فيها، وذلك في حق الأولياء غير مستنكر ولا مستبعد من صدوره عنهم بإذن الله تعالى، فكل ما صدر منهم أو يصدر إنما هو بإذن خاص لهم في فعله، وإن لم يصرحوا بالإذن فهو محمول على الإذن منه تعالى، ألا ترى إلى قصة سليمان عليه السلام مع الذي أوتي علما من الكتاب، وهو آصف ابن برخيا على المشهور من أقوال المفسرين فيه، فإنه أحضر عرش بلقيس بين يدي نبي الله سليمان في أقرب وقت، طبق ما قص الحق في كتابه العزيز من قوله : "قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك(48) ولم يقل بإذن الله اعتمادا على كون ذلك واضحا، وقد أحضره له من غير أن يتحرك من محله، ولم يستعن بمخلوق في نقله، بل كان ذلك بتصرف خاص أعطاه الحق له، كما يعطي مثله أو أكثر منه لأوليائه الخواص، فهم يتصرفون في الكون بمثل هذا التصرف وبأكثر منه بإذن الله.

وفي هذه القصة من إظهار كرامة الولي ما لا يسع المعترض إلا تسليمه، فهو الذي أتى بالعرش وأوجده في محل سليمان عليه السلام وأعدمه من محل ملك بلقيس، من غير أن يسافر آصف إليه، بل ولا تحرك من موضعه، وكان العرش بأرض سبأ وسليمان عليه السلام ببيت المقدس، وتقدر المسافة بين المحلين بنحو شهر. ولا يقال كيف تصرف آصف بإحضار العرش مع أن مقام سليمان عليه السلام أمكن عند الله في الولاية الخاصة، ومع ذلك لم يتصرف هو بنفسه في إحضاره، ولا يحتاج لمن يحضره له، لأنا نقول أن الأنبياء عليهم السلام واقفون في مقام التشريع على قدم الجد لا تتصرف همتهم لمعجزة، إلا إذا طلبت منهم فيأتون بها على وفق التحدي، على أن هناك قولا بأن الذي أتى بالعرش هو سليمان عليه السلام في قول بعض المفسرين، والفاعل في قوله : قال الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان لا غيره، وقيل غير ذلك.

---

(46) أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج، صوفي مشهور، من أهل بيضاء فارس، نشأ بواسط العراق، ثم انتقل إلى البصرة، وبعدها إلى بغداد، أخذ عن عدة شيوخ منهم : الجنيد، والنوري، وعمرو بن عثمان المكي، وغيرهم. له مؤلفات كثيرة منها : الظل الممدود والماء المسكوب والحياة الباقية، وطاسين الأزل والجوهر الأكبر والشجرة النورانية، وعلم البقاء والفناء، وقرآن القرآن والفرقان، ومدح النبي والمثل الأعلى، والقيامة والقيامات، وكيف كان وكيف يكون، وهو هو، والكبريت الأحمر، والوجود الأول، والوجود الثاني، واليقين، والتوحيد، وغيرهم. وقد ترجم بعضها إلى لغات مختلفة. قتل رحمه ا تعالى ببغداد يوم الثلاثاء 24 ذي القعدة الحرام عام 309هـ، انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ج 11 ص 132، وفي الطبقات الكبرى للشعراني ج 1 ص 107 رقم الترجمة 209، وفي طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمان السلمي ص 307، وفي لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج 2 ص 314، وفي الأعلام للزركلي ج 2 ص 260.

(47) أبو أمية وهيب بن الورد بن أبي الورد المخزومي، من خاصة العباد، توفي بمكة عام 153هـ، وكان اسمه (عبد الوهاب) فصغر فقيل : وهيب، انظر ترجمته في حلية الأولياء لأبي نعيم ج 8 ص 140، وفي صفة الصفوة لابن الجوزي ج 2 ص 123، وفي طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمان السلمي ص 44، وفي مرآة الجنان لليافعي ج 1 ص 323، وفي الأعلام للزركلي ج 8 ص 126.

(48) سورة النمل، الآية 40.

وعلى كل حال فقد وقع إيجاد العرش في محل وإعدامه من محل، مع أن الإيجاد والإعدام إنما هو لله لا غيره، ولكن لما كان ذلك بإذن الله في الباطن لم يمتنع نسبة ذلك الإتيان لآصف أو لغيره، وهكذا كل من عنده علم من الكتاب، والمراد به الإسم الأعظم، وقيل المراد بالكتاب التوراة، ومعنى ذلك العلم به والعمل بمضمنه، فكان بسبب عمله بالتوراة من الأولياء المتصرفين، وقد ظفر آصف بسر الإذن في الإتيان به من سليمان عليه السلام، فاكتسب قوة التصرف بذلك الإذن المفروغ في قالب الطلب باستفهامه عمن يحضره له في أقرب وقت من الوقت الذي فيه قال عفريت من الجن : أنا آتيك به، ولم يحصل للعفريت الإذن مثل ما حصل للذي عنده علم من الكتاب، وقد فعل ذلك من غير توقف، ولا شك أنه كان مأذونا من قبل ذلك في التصرف، ولولا اعتياده للتصرف في الكون بما لديه من العلم ما قدر على ادعاء إتيانه به، وكان سليمان عليه السلام عالما بأنه يأتيه به طبق ما تمناه، فلذلك أعرض عن العفريت، وقال أريد أسرع من ذلك كما قاله المفسر الجلال وغيره.

ومثل هذه الكرامة تساقط الرطب الجني من الجذع الذي هزته مريم عليها السلام(49)، فقد وجد لها ذلك في الحين كرامة لها وتحققا بمعجزة من أمرها بهزه مع كون الجدع يابسا، ولتحققها وتصديقها بوجود ذلك طبق مقاله وإيجاده في الحين هزت الجدع امتثالا للأمر الصادر لها، مع ما تراه من يبسه، فاخضر في الحين وأثمر في يديها، وتساقط التمر عليها، ولم تشك في كون ذلك من جنس ما أكرمت به من وجود ولدها عليه السلام من غير أن يمسها أحد، فهي أول من آمن بعيسى ولدها عليه السلام، ولم تتردد في أمره لها، فكان ذلك وفق الأمر وطبق المظنون، ولم تكن مثل قوم موسى في التشديد على أنفسهم في استفهامه عليه السلام عن أوصاف البقرة التي أمروا بذبحها ليضرب الميت ببعضها لصير حيا فيخبرهم بقاتله الحقيقي، ولو امتثلوا أمره من أول وهلة لكانت كل بقرة يتم بها المطلوب لديهم في تحقق تلك المعجزة التي كان فيها إحياء ذلك الميت، مع أن الإحياء بيد الله لا بيد غيره، سواء كان بسبب أو بدون سبب، وقد كان الإحياء بمحضرهم بذلك من غير شك، وذلك واقع بإذن الله، وقد وقع من الأنبياء عليهم السلام مثل هذا كثيرا، وهو مما يدل على تصرفهم في المكونات.

وكلهم من رسول الله ملتمس　　　　غرفا من البحر أو رشفا من الديم

---

(49) إشارة لقوله تعالى في حق مريم عليها السلام : "وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا". سورة مريم الآية 25.

فمنهم من أحيا الموتى فنسب له الإحياء، وغير ذلك من إبراء الأكمه والأبرص كما وقع ذلك من عيسى عليه السلام مرارا، وكخلقه عليه السلام من الطين كهيئة الطير فكان طائر بإذن الله، ولولا كون الخلق يصح من المخلوق ما تشوفت له نفس نبي الله إبراهيم عليه السلام، وقد أوجد ذلك فكان على وفق مراده، كما فعل ذلك عيسى عليه السلام بعده، وخلقه عليه السلام لم يكن عبثا، بل في طيه حكم باهرة وأسرار باهضة. قال الشيخ الأكبر الحاتمي فيما نقله عنه في الكبريت الأحمر في قوله تعالى : "أفرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض"(50)، اعلم أن خلق عيسى عليه السلام للطير إنما كان بإذن الله، فكان خلقه الطير عبادة يتقرب بها إلى الله، لأنه مأذون له في ذلك، فما أضاف تعالى الخلق إلا لإذن الله، وعيسى عليه السلام عبد، والعبد لا يكون إلها، الخ ...

وكذلك يقال فيما فعله إبراهيم عليه السلام، فخلقه للطائر بإذن الله، وفيه عبادة محضة للحق تعالى، فقد قيل في قوله تعالى : أو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي(51). بأن المراد اطمئنان قلبه بتسليم قومه له حين يشاهدون هذه المعجزة العظيمة التي أبرزها الحق على يده، وبذلك يتم إيمانهم الذي فيه له تمام الرغبة، وفي ضمن ذلك أسرار عالية المدارك ليس هذا محل الإفصاح عن بعضها.

والحاصل أن جميع المعجزات لا طاقة للمخلوق أن يوجدها بغير إذن الله، وقد نص جمهور أهل السنة على أن كل ما جاز كونه معجزة لنبي جاز كونه كرامة لولي، لا فرق بينهما إلا التحدي، وهنا كلام طويل الذيل بين الأصوليين، والتحقيق ما ذكرناه. ولا التفات لمن أنكر ذلك، وأنظر شراح الدجنة للمقري(52) لدا قولها :

ولا تصغ لمن أبى الكرامة　　　للأولياء واجتنب مرامه

وشراح قول الهمزية :

والكرامات منهم معجزات　　　نالها من نوالك الأولياء

(50) سورة فاطر، الآية 40.
(51) سورة البقرة، الآية 260.
(52) أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى المقري التلمساني، مؤرخ، فقيه، أديب، حافظ، من مواليد تلمسان، ثم انتقل إلى فاس، حيث استقر بها مدة طويلة قبل أن يتوجه للديار المشرقية، وكانت وفاته بمصر في شهر جمادى الثانية عام 1041هـ، ومؤلفاته كثيرة منها : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وأزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، وروضة الأنس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس، وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة، وعرف النشق في أخبار دمشق، وغيرهم.
انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 300 رقم الترجمة 1162، وفي فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 574 رقم الترجمة 331، وفي خلاصة الأثر للمحبي ج 1 ص 302، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 328 رقم الترجمة 734، وفي الأعلام للزركلي ج 1 ص 237.

وإذا ثبتت الكرامة للأولياء في فعلهم قيد حياتهم مثل هذا فلا معنى للتوقف في جواز ما وقع السؤال عنه إلا لمن لا يصدق بذلك أو عاند في الحق الواضح، ولا كلام لنا مع الجاحد، فإنه لا يقبل الحق ولو صار عنده من قبيل المحسوس، ولقد شاهد المصدقون بالكرامات من قديم الزمان، ولا زالت واضحة عند أهلها إلى زماننا هذا وإلى ما بعدهم بحول الله، مما لا شك فيه، بتحقق التصرف لأهل الله ظاهرا وباطنا، ولا يحصل المنكر على خير بإنكاره، وكثيرا ما أفضى الإنكار بصاحبه إلى الطرد عن حمى أهل الله، فكان عاقبة أمره خسرا.

وقد رأينا كثيرا ممن امتحنوا، وقل من نجا من التهلكة في دينه ودنياه، ولم يزده مكر الحق به إلا تجلدا في تحمله للمكاره وتعصبا لهواه، تبعا لما ساقته إليه المقادير، إلا ما كان ممن تحققت نسبتهم لبيت النبوة، فقد قادتهم السعادة لمحلها، فنالوا بالتوبة النصوح عن الطعن في أهل الله مالا يكيف من فتوحات ربانية، ومواهب عرفانية، صاروا بها في عين الرضى والقبول، عند الله وعند الرسول، وما ذلك إلا إكراما للبضعة المحمدية من البلاء المحيق بأهل الإنكار، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، نسأل الله العفو والعافية في الدارين.

ولا يقال أن التصرف في قيد الحياة ظاهر بخلاف تصرف الولي الميت، لأنا نقول : تصرف الولي قيد حياته إنما كان بصفاء مرآته وغلبة روحانيته على جثمانه، فهو يتصرف بالهمة والحال، لا بإعمال يده وبقية جوارحه في تحصيله على المطلوب. وقد رأيت حضور عرش بلقيس بمحل سليمان من غير استعمال يد في نقله إليه إلا مجرد التوجه، فكان إعدامه وإيجاده بالهمة والدعاء الخاص الذي تم به المطلوب بإذن الله تعالى، وإذا تحقق لديك أن الأمر في هذا الباب إنما هو على صفاء الروح وقوة الهمة والحال ثبت لديك أن الحق مع من يقول : تصرف الولي بعد موته أكثر منه في قيد الحياة، لتجرد الروح وأحقيتها بالتوجه، ولذلك قال ابن باديس في سينيته في ترجمته لبعض الأولياء :

ولا تسمعن من قاصر النفع فيهم	على من يكن حيا فذاك من الطلس
فإن شهود النفع ينفي مقاله	ولا سيما والقوم نصوا على العكس

والمدار الذي تدور عليه دائرة تصرف الأولياء قيد الحياة وبعدها هو دخولهم في كنف الحق الذي نظر إليهم بعين محبته الخصوصية، التي اقتضت أن ينتصر لهم في حضورهم وغيبتهم، حتى أنه جل علاه واعد بمحاربة من عاداهم، وقام مقامهم بما كفاهم به أمرهم في دنياهم وأخراهم، فقد روينا في الصحيح قول الله تعالى في الحديث القدسي : "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشي أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه"(53).

(53) انظر صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم الحديث 6137.

قال العلامة الشبراخيتي(54) في شرحه للأربعين النووية عند التعرض للكلام على هذا الحديث، وطرق فيه احتمالات سبعة، والتحقيق أنه مجاز وكناية عن نصرة الله لعبده المتقرب إليه بما ذكروا تأييده وإعانته وتوليته في جميع أموره، حتى كأنه تعالى نزل نفسه من عبده منزلة الآلات والجوارح التي يستعين بها، ولهذا جاء في رواية أخرى : فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، أي أنا الذي أقدرته على هذه الأفعال وخلقتها فيه، فأنا الفاعل لذلك لا أنه يخلق أفعال نفسه خلافا للمعتزلة، وزعم الإتحادية والحلولية أن الحديث على حقيقته وأن الحق عين العبد أو حال فيه، فهو ضلال مكفر إجماعا، ويرد حملهم قوله في بقية الحديث : ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه(55) الخ ...

وعلى كل حال فإن هذا الحديث الصحيح مصرح بإجابة الحق لعبده المحبوب في كل ما طلبه من المطالب الدنيوية والأخروية لنفسه ولغيره، وذلك كله يحسب من أفعاله، والفاعل الحقيقي هو الله تعالى، وقد ورد في بعض الآثار : من قتل بدعائه فكأنما قتل بسيفه، فيعد القتل من فعله مع أنه من فعل الحق تعالى، ولذلك أدب الحق جل ذكره من افتخر من ساداتنا أهل بدر بعد الوقعة بقتلهم لعداهم فقال تعالى : "فلم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم"(56)، فكان هذا على حد قوله تعالى : "لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان"(57). مع أنهم قد باشروا القتل بأنفسهم فكان من فعلهم، ولكن القاتل في الحقيقة هو الله، والحكمة في قوله تعالى في خطاب النبي (ﷺ) : "وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى"(58). هي إظهار المعجزة الصادرة منه وتقريرها لتذكر من جملة معجزاته التي أمر بالتحدث بها، وإلا فهو (ﷺ) الذي رمى، والرمي من فعله، وإن كان الرامي في الحقيقة هو الله تعالى، وقد يشتبه الأمر في الفعل على الشخص فينسب الفعل لنفسه استقلالا، إما لجهل أو لتعنت في الكفر، كما وقع للنمرود في قصته مع سيدنا إبراهيم عليه السلام ومحاجته له،

---

(54) برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن مرعي بن عطية الشبرخيتي، من أفاضل المالكية بمصر، أخذ عن الشيخ الأجهوري وهو عمدته، وأخذ كذلك عن الشيخ يوسف الفيشي، والعلامة سيدي محمد البابلي، وغيرهم، وله مؤلفات نفيسة منها شرح على مختصر خليل في أربع مجلدات، والفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثا النووية، وشرح على العشماوية، وشرح على ألفية السيرة للعراقي، وغيرهم.
توفي رحمه الله غريقا في النيل وهو متوجه إلى رشيد عام 1106هـ، انظر ترجمته في شجرة النور الزكية ص 317 رقم الترجمة 1236، وفي معجم المطبوعات لإليان سركيس 1096، وفي الأعلام للزركلي ج 1 ص 73.

(55) للشيخ أبي العباس التجاني رضي الله تعالى عنه شرح مفيد على نص هذا الحديث، أنظره في جواهر المعاني للعارف بالله سيدي الحاج علي حرازم ج 2 ص 12-33.

(56) سورة الأنفال، الآية 17.

(57) سورة الحجرات، الآية 17.

(58) سورة الأنفال، الآية 17.

وقد حكى الله في كتابه العزيز عنه ذلك فقال جل من قائل : "ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت، قال فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذي كفر"(59). فكان هذا من سيدنا إبراهيم عليه السلام فيه إقحام لهذا المتعنت الكافر كما أخبر عنه بقوله : فبهت الذي كفر.

ولقد حبس الله ألسنة الأمم عن طلب مثل هذا من الأنبياء عليهم السلام ليروها من معجزاتهم، ومع ذلك فقد رد الله الشمس لنبي الله يوشع إجابة لدعائه. كما ردها في حق سيدنا علي كرم الله وجهه كرامة في حقه ومعجزة في حق الرسول عليه السلام, وفي ذلك يقول صاحب المقصورة(60) :

والشمس ما ردت لغير يوشع   لما غزا ولعلي مذ غفا

والراد لها بعد الغروب، والحابس لها عن الغروب، هو الله تعالى، وهكذا سائر التصرفات، فالمتصرف في الحقيقة هو الله تعالى. ولكنه سبحانه سوغ نسبة ذلك لعبده ليقوم بأعباء العبودية، وإن كان هو المقيم والقائم على كل نفس بما كسبت، وبمقتضى الكسب الموهوب للعبد عومل بالثواب في الخير وبالعتاب والعقاب في الشر. وهو مذهب أهل السنة خلافا لأصحاب الأهواء الذين من جملتهم الجبرية، وقد قال قائلهم :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء

فإنهم يستدلون على الحق بأنه هو الفاعل الحقيقي، وإنما هم مجبورون على الفعل والترك، وينحو منحاهم في ترك العمل اعتمادا على السابقة المرجئة، وهي طائفة تلاطمت عليها أمواج الضلال في سفينة ظلام الهوى، لعدم اكتراثهم بالذنوب، حتى قال قائلهم :

مت مسلما ومن الذنوب فلا تخف   حاشا المهيمن أن يرى تنكيدا
لو رام أن يصليك نار جهنم   ما كان ألهم قلبك التوحيدا

وقد نطق القلم في هذا المقام في رد هذا المقال فقال :

كن مسلما واحذر ذنوبك دائما   إن الذنوب تلطخ التوحيدا
واحذر من النفس التي بغرورها   تجني عليك وتبتغي التأييد

(59) سورة البقرة، الآية 258.

(60) هو العلامة الأديب محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، وقد سبق التعريف به في ج 1 ص 108 من هذا المجموع.

ثم إن الحق سبحانه بعميم فضله، وكمال عدله، نسب لخلقه أعمالهم ليكونوا متصرفين بمقتضى السابقة فيها، وكل يعمل على شاكلته، وفي ذلك بلاء أحسن لهم، وفيه يقول : "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا"(61). فهو سبحانه الفاعل الحقيقي، ولكن تفضل بنسبة ذلك لعبده. وفي الحكم العطائية : إذا أراد أن يظهر فضله عليك، خلق ونسب إليك. وفي بعض الأحاديث القدسية يقول الحق سبحانه : "أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما أهلا، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه". فالخالق للخير والشر في الحقيقة هو الله جل علاه كما قال وهو أحكم الحاكمين : "قل كل من عند الله"(62). ولكن مقتضى الأدب أن ينسب العبد الحسن لمولاه والسيء لنفسه، وقد علمنا ذلك بقوله : "ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك"(63). ولا شك أن كل ما أصيب به الشخص فهو على وفق القضاء والقدر بمقتضى قوله عليه السلام : جف القلم بما أنت لاق.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما : واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، وفي رواية أخرى : واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدره الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف(64). ولا ينافي هذا قوله تعالى : "يمحو الله ما يشاء ويثبت"(65). لأن المحو والإثبات مما جفت به الصحف أيضا.

وهذا المقام يستدعي بسط الكلام فيه ليندفع ما يرد على الشخص من الإيرادات، ولكن فيما قدمناه كفاية، غير أنه بقي علينا أن نقول : يتعين على المريد أن يتحرى الصدق فيما يخبر به من قوله مثلا : الشيخ رفع فلانا إلى مقام كذا وأعطاه كذا، لأن ذلك شهادة منه، فإن صادفت الواقع كان صادقا، وإلا فهو كاذب فيما أخبر به، لا يجوز له عند الله ولا عند العباد أن يشهد أو يخبر بما ليس له به يقين علم بمشاهدة أو سماع مستفيض أو أخبار صحيحة، فإذا لم يكن لديه بذلك اطلاع تام وشاهد ذلك بقرائن الأحوال فله أن يقول : لعل الشيخ أو الولي سيدي فلان تصرف في فلان بكذا وكذا، اعتمادا على تلك القرائن، مع سلامة الإعتقاد بكون الفاعل هو الله، وإلا كان على خطر في دينه.

وقد تساهل العوام في هذا الإطلاق من غير تحقق بكون ذلك الواقع بالشخص هو من تصرف الشيخ أو الولي الفلاني، وذلك منهم إخبار بما يحتمل الكذب، أو هو نفس الكذب على الشيخ الذي نسب له ذلك مع الشهادة بالباطل، فيكون من جملة من أخبر عنهم الحق بقوله : "ستكتب شهادتهم ويسألون"(66).

---

(61) سورة الكهف، الآية 7.
(62) سورة النساء، الآية 78.
(63) سورة النساء، الآية 79.
(64) رواه الإمام الترمذي عن عبد ا بن عباس، وقال حديث حسن صحيح.
(65) سورة الرعد، الآية 39.
(66) سورة الزخرف، الآية 19.

ولهذا ونحوه يتعين على المريد الصادق أن يجتنب مثل هذا الأمر، فلا يخبر إلا بما علمه وتحققه. وقد قال عليه الصلاة والسلام : عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا(67)، وهو حديث في الصحيح مروي عن أبي مسعود عن النبي (ﷺ)، وأما مناداة الشيخ أو الولي مطلقا، والإستغاثة به وطلب معونته، ونحو ذلك مما يماثل ما اشتمل عليه السؤال، فقد تشعبت فيه أقوال العلماء وآراؤهم، وانتصر بعضهم لبعض فيما يقول أنه الحق على اختلاف المذاهب، وكبر ذلك في عين ابن تيمية(68) ومن نحا نحوه، وأغلظ بعضهم في الطعن في نحر فاعل ذلك، مع أن الخطب سهل إن سلمت عقيدة قائل ذلك وسامعه منه، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتعلقون بالرسول (ﷺ) ويستغيثون به وينادونه ويستسقون به، وأنشد في الصحيح فيه (ﷺ) :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وقال سواد بن قارب الصحابي(69) مخاطبا له :

فكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة بمغن فتيلا عن سواد ابن قارب

ومثل هذا كثير، وقد استسقى الصحابة بعده بعمه سيدنا العباس(70) رضي الله عنه، ولا زال عمل الناس مع سلامة العقيدة على جوازه خلافا لمن منع ذلك مطلقا، حتى بالغ المتمسكون بالظاهر في تكفير فاعل ذلك، مع أن تكفير المسلم ليس بالأمر الهين عند الله وعند خلقه، والتحقيق

---

(67) انظر صحيح الإمام البخاري، كتاب الأدب، باب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا وكونوا مع الصادقين، رقم الحديث 5743، وفي صحيح الإمام مسلم رقم الحديث 2607.

(68) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي الحنبلي، المعروف بتقي الدين ابن تيمية، له مؤلفات كثيرة، قيل أنها تبلغ ثلاث مائة مجلد، توفي في معتقله بقلعة دمشق عام 728هـ، انظر ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ج 1 ص 144، وفي البداية والنهاية لابن كثير ج 14 ص 135، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج 9 ص 271، وفي فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج 1 ص 35-45، وفي الأعلام للزركلي ج 1 ص 144، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 433 رقم الترجمة 950، وفي فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 274 رقم الترجمة 112.

(69) سواد بن قارب الأزدي الدوسي، صحابي جليل، توفي بالبصرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي ا عنه عام 15هـ، انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر العسقلاني رقم الترجمة 3576، وفي الروض الأنف للسهيلي ج 1 ص 139، وفي عيون الأثر لليعمري ج 1 ص 72، وفي بلوغ الأرب للآلوسي ج 3 ص 299.

(70) انظر صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر العباس بن عبد المطلب رضي ا عنه رقم الحديث 3507.

ما لخصه العلامة ابن جعفر الكتاني في كتابه سلوة الأنفاس، بعد كلام قال : وفي المدخل(71) ما نصه : فإن كان الميت المزور ممن ترجى بركته فيتوسل إلى الله تعالى به، وكذلك يتوسل به إلى النبي (ﷺ)، يعني ولا يعكس، إلى أن قال : ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم ويكثر التوسل بهم، لأنه سبحانه اجتباهم وشرفهم وكرمهم، فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر، فمن أراد حاجة فليذهب إليهم ويتوسل بهم، فإنهم الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه، وقد تقرر في الشرع وعلم ما لله تعالى من الإعتناء بهم وذلك كثير مشهور(72)، ثم قال : وفي الإبريز أن من جملة الأسباب الموجبة للإنقطاع عن الله عز وجل الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم بها التوسل إلى الصالحين بالله عز وجل ليقضوا الحاجة، فيقول الزائر قدمت لك وجه الله يا سيدي فلان إلا ما قضيت لي حاجتي، قال : وإنما كان سببا للإنقطاع لأن الزائر قلب الواجب وعكس القضية، فإنه كان من حقه أن يتوسل لله عز وجل بأوليائه لا أن يعكس(73).

ثم قال في السلوة المنقول عنها، قلت : وسبب هذا الجهل العظيم الصادر منهم أنهم يعتقدون في الأولياء أنهم يضرون وينفعون. ويعزون ويذلون، ويعطون ويمنعون، ويولون ويعزلون، إلى غير ذلك مما هو مختص بالباري تبارك وتعالى، ولذلك تجد أحدهم يأتي إلى ضريح الولي ويقول له : يا سيدي فلان أسألك بالله إلا ما شفيتني، أو إلا ما رفعت عني هذا الضرر، أو إلا ما أعطيتني كذا، أو إلا ما سهلت علي كذا، إلى غير ذلك من سؤالاتهم الفظيعة، وأحوالهم الذميمة الشنيعة، التي يوهمون بها وجود شريك مع الباري سبحانه، وقائل ذلك ونحوه إن اعتقد أن الولي هو الذي يؤثر في قضاء حاجته ويوجدها بقدرته على حسب إرادته كما يوجدها الباري سبحانه كفر وكان مرتدا، لأنه أشرك مع الله غيره، وإن اعتقد أنه يؤثر فيها بما جعله الله فيه من القوة والسر كان مبتدعا وفي كفره خلاف، وإن اعتقد نفي التأثير عنه رأسا وكان يرى أن الفاعل المختار في جميع الأشياء هو الله سبحانه لا غيره من جميع المخلوقات، ولكنه يرى أن هذا الولي العظيم بمكانته عند مولاه ورفيع منزلته لديه رزقه الله التصرف في مملكته، فهو يولي فيها ويعزل ويعطي ويمنع، ويضر وينفع، بإذن منه سبحانه على حسب ما جرى به علمه تعالى وتعلقت به إرادته في سابق أزليته، بحيث لا يولي إلا من أراد الله توليته، ولا يعزل إلا من أراد عزله،

---

(71) كتاب مدخل الشرع الشريف، طبع في ثلاثة أجزاء، من تأليف العلامة الشهير سيدي محمد بن محمد بن محمد بن الحاج العبدري المالكي الفاسي، فقيه، محدث، صوفي، توفي عام 737هـ، من مؤلفاته الأخرى : شموس الأنوار وكنوز الأسرار، وبلوغ القصد والمنى في خواص أسماء ا الحسنى، انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 218 رقم الترجمة 769، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 281 رقم الترجمة 629، وفي الديباج المذهب لابن فرحون ص 327، وفي الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 237، وفي الأعلام للزركلي ج 7 ص 35.

(72) انظر المدخل للعلامة سيدي محمد بن الحاج ج 1 ص 255.

(73) انظر الذهب الإبريز لسيدي أحمد بن المبارك ص 294.

وهكذا كان مصيبا في اعتقاده المذكور، موافقا فيه لاعتقاد أهل السنة والجماعة(74)، إلا أنه مخطئ من جهة إسناده الفعل ظاهرا إلى من ليس له على الحقيقة، مع أن المقام لا يصلح لذلك لما فيه من شدة إيهام التأثير لغيره، سيما إن وقع ذلك بحضرة الجهال ومن لا علم عندهم بالعقائد، ووقع من شخص مقتدى به ولو في الجملة، فإنه ربما يوقعهم بكلامه في اعتقاد الكفر من حيث لا يشعر ولا يشعرون. فاجتنب ذلك هداك الله ووفقك، ولا تنسب الأشياء إلا إلى خالقها وبارئها، ولا تسألها إلا منه سبحانه، نعم التوسل إليه سبحانه بأوليائه لا بأس به كما سبق، بل هو مطلوب محبوب، لكونهم أبواب الله تعالى وحجاب حضراته، فلا يخرج منها خير لأحد إلا من جهتهم وعلى أيديهم إلى آخر كلامه(75).

وهذا كله في حق من توسل للأدنى بالأعلى ليقضي حوائجه، فإن الإيهام واضح، كمن توسل للولي بالله في إعطائه ما يسأله منه، فإن حكمه من هذه الجهة بمحضر الجهال لا يتوقف في منعه أحد، وإلا فحكم طالب الشيء من الولي بل من مطلق الناس في قيد الحياة سائغ، ما لم يكن ذلك بالتوسل إليه بمن هو أعلى منه قدرا، فيقال للأمير مثلا : أداخل عليك بوجه الله وبوجه رسول الله، فإن السؤال بمثل هذا فيه محذور، وهو عند من يعتد بكلامهم محظور.

وقد علمت أنه لا فرق بين طلب الميت وطلب الحي، مع أن الميت له لطيفة روحانية قوية في التصرف بإذن الله في العوالم العلوية والسفلية على حسب مكانته عند الحق تعالى، ولا معنى لمنع تصرف الروح مع شهود المنفعة التامة الحاصلة لمن تعلقت همته بها في استحضارها لقضاء حوائجه، وقد ضربت أعناق علماء المادة المانعين لبقاء الروح بعد موت صاحبها بسوط فن التنويم المغناطيسي، وعلم استحضار الأرواح الذي شاع وذاع في نواحي المعمورة حتى صار من قبيل المحسوس لا يشك فيه عاقل. وليت شعري هل همم مستحضريها أقوى من المعتقد في الأولياء، أو الأرواح الحاضرة أقوى من أرواح الأولياء في تلك التصرفات، وإن كان عندي ملحظ في تلك الروح الحاضرة بقوة همة المنوم من حيثية كونها ليست روح إنسان، وإنما هي نفس جني من المردة الذين دأبهم التضليل، فإنه يحضر عندما تتوجه همة ذلك المنوم الذي اكتسبت همته سيطرة روحانية على عالم الخيال في إظهاره للعيان، وذلك من أنواع السحر التي منها الشعبذة السيماوية، التي يستعان فيها بالأرواح العلوية

---

(74) قال العلامة السيد علوي المالكي المكي في كتابه : مفاهيم يجب أن تصحح، عند تطرقه فيه لهذا الموضوع : الواسطة لا بد منها، وهي ليست شركا، وليس كل من اتخذ بينه وبين ا واسطة يعتبر مشركا، وإلا لكان البشر كلهم مشركين با ، لأن أمورهم جميعا تنبني على الواسطة، فالنبي (ﷺ) الواسطة العظمى للصحابة رضي ا تعالى عنهم، فقد كانوا يفزعون إليه في الشدائد، فيشكون إليه حالهم، ويتوسلون به إلى ا ويطلبون منه الدعاء، فما كان يقول لهم أشركتم وكفرتم، فإنه لا يجوز الشكوى إلي ولا الطلب مني، بل عليكم أن تذهبوا وتدعوا وتسألوا بأنفسكم فإن ا أقرب إليكم مني، لا بل يقف ويسأل، مع أنهم يعلمون كل العلم أن المعطي حقيقة هو ا ، وأن المانع والباسط والرزاق هو ا ، وأنه (ﷺ) يعطي بإذن ا وفضله، وهو الذي يقول : إنما أنا قاسم وا معطي، وبذلك يظهر أنه يجوز وصف أي بشر عادي بأنه فرج الكربة، وقضى الحاجة، أي كان واسطة فيها.

ثم قال بعد كلام : ألم يقل النبي (ﷺ) كما جاء في الصحيح (من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا)؟ فالمؤمن مفرج الكربات، ألم يقل (ﷺ) (من قضى لأخيه حاجة كنت واقفا عند ميزانه فإن رجح وإلا شفعت له) ؟ فالمؤمن قاضي للحاجات، ألم يقل في الصحيح (من ستر مسلما) الحديث ؟ ألم يقل (ﷺ) (إن عز وجل خلقا يفزع إليهم في الحوائج) ؟ ألم يقل في الصحيح (وا في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه) ؟ ألم يقل في الحديث (من أغاث ملهوفا كتب ا له ثلاثا وتسعين حسنة) ؟ رواه أبو يعلى والبزار والبيهقي، فالمؤمن هنا فرج وأعان وأغاث وقضى وستر وفزع إليه، مع أن المفرج والقاضي والستار والمعين حقيقة هو ا عز وجل، لكنه لما كان واسطته في ذلك صحت نسبة الفعل إليه.

(75) انظر سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج ص 52-54.

والسفلية، وعلى كل حال فقد أثبتوا للأرواح تصرفات خارقة للعادات. وقد بسطت القول في هذا المعنى في تويلف سميناه : طرب الحي، بكون الأخذ عن الميت أفضل من الأخذ عن الحي(76).

وبعد كتبي لهذه الكلمات عثرت على كلام نفيس للعلامة الحجة الشيخ محمد بخيت المطيعي(77)، في مقدمته لشفاء السقام المسماة : تطهير الفؤاد من دنس الإعتقاد، حبب إلي نقله هنا لما اشتمل عليه من التحقيق، فقال شكر الله سعيه بعد كلام ما نصه : وقد تقرر عقلا ونقلا أن توقف الممكنات بعضها على بعض لنقص في الممكنات لا لعجز في الفاعل جل شأنه، وهذا مما كاد أن يكون بديهيا، وكما جاز أن يتوسط حي في قضاء مصلحة حي، والفعل لله وحده، يجوز أن تتوسط روح ميت في قضاء مصلحة حي أو ميت، والفعل لله وحده، والأرواح باقية على الحياة، وأفعالها في عالم الملك إنما تظهر بواسطة البدن ما دام حيا بالحياة الحيوانية، فإذا مات وفقد الحياة الحيوانية بقيت نفسه وروحه على حياتها الملكوتية، وتعلقت بجسمه تعلقا آخر على وجه آخر يعلمه الله تعالى، كما دل عليه القبر وعذابه، فإذا كان الفعل في الواقع ونفس الأمر إنما هو للنفس والروح، والجسم آلة يظهر به الفعل، والروح باقية خالدة، ففعلها باق، وتصرفها في أفعالها لا يتغير إلا بعدم ظهور الأفعال بواسطة البدن، فلا مانع عقلا أن يكون بعض أرواح الأولياء والصالحين بعد موت الأجساد سببا بدعائها وتوجهها إلى الله تعالى في قضاء حوائج بعض الزائرين لهم المتوسلين بهم بدون أن يكون لها مدخل في التأثير.

---

(76) طرب الحي، بكون الأخذ عن الميت أفضل من الأخذ عن الحي، من أهم مصنفات العلامة سكيرج رضي ا عنه، ألفه في الرد على من زعم أن التربية والسلوك ينحصران في الأخذ عن الشيخ الحي، وكان من جملة القائلين بذلك العلامة الحافظ عبد الحي الكتاني، ومما يتأسف له أن هذا التأليف واحد من عشرة تآليف مهمة ضاعت في حياة مؤلفها العلامة سكيرج، وقد صرح رضي ا عنه بأسماء عناوينها في آخر كتابه : الإغتباط في الجواب عن الأسئلة الواردة من الأغواط، وهو من جملة تصانيفه المنضوية داخل هذا المجموع، انظر ج 1 ص 116.

(77) محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي، مفتي الديار المصرية، ولد في بلدة (المطيعة) من أعمال أسيوط، عام 1271هـ، فدرس بجامعة الأزهر، ثم عين مدرسا بها، وفي سنة 1333هـ عين مفتيا للديار المصرية على مدا ست سنوات، من تآليفه : إرشاد الأمة إلى أحكام أهل الذمة، وأحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدع من الأحكام، والقول المفيد في علم التوحيد، والبدر الساطع على جمع الجوامع، ورفع الإغلاق عن مشروع الزواج والطلاق، وغيرهم، وتوفي رحمه ا بالقاهرة عام 1354هـ، انظر ترجمته في الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 234 رقم الترجمة 550، وفي معجم المطبوعات لسركيس 538، وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 50، وفي صفوة العصر لزكي فهمي ج 1 ص 501، وفي مرآة العصر لزخوره ج 2 ص 467.

وأي فرق بين التوسط بالأحياء في قضاء الحوائج مع اعتقاد أن لا فاعل إلا الله وبين توسط أرواح الأموات مع اعتقاد ذلك، والقول بأن ملوك الدنيا إنما يحتاجون إلى الوسائط لجواز الغفلة عليهم عن حوائج الخلق بخلاف العليم الخبير سفسطة ظاهرة وتمويه على العقول، فإن الملك ووسائطه واسطة في قضاء حوائج الطالب من الله تعالى، إذ لا فاعل سواه، فلو كان اتخاذ الواسطة شركا بعد اعتقاد أن المؤثر هو الله وحده لكان معاونة بعضنا لبعض في قضاء المصالح شركا، وهذا باطل بالضرورة لما يترتب عليه من بطلان الشرائع وفساد العالم وعدم نسبة الأفعال الإختيارية إلى فاعليها، فتبطل الحدود والزواجر، ويختل النظام، فعليك بالإنصاف إهـ... المقصود منه وكله نفيس.

وقال شهاب الدين الحموي في كتاب : نفحات القرب والإتصال بإثبات التصرف لأولياء الله تعالى والكرامة بعد الإنتقال ما نصه، في نسق كلام نقله عن الإمام التاج السبكي(78) : ثم إن تصرف الأولياء في حياتهم وبعد مماتهم إنما هو بإذن الله تعالى وإرادته لا شريك له في ذلك خلقا وإيجادا، أكرمهم الله تعالى به وأجراه على أيديهم وألسنتهم خرقا للعادة، تارة بإلهام وتارة بمنام، وتارة بدعائهم وتارة بفعلهم واختيارهم، وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم، بل قد يحصل من الصبي المميز، وتارة بالتوسل إلى الله بهم في حياتهم وبعد مماتهم مما هو محكي في القدرة الإلهية، ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم إلى الخلق والإيجاد والإستقلال بالأفعال، فإن هذا لا يقصده مسلم، ولا يخطر ببال أحد من العوام فضلا عن غيرهم، فصرف الكلام فيه ومنعه من باب التلبيس في الدين، والتشويش على عوام الموحدين، فلا يظن بمسلم بل ولا بعاقل توهم ذلك فضلا عن اعتقاده، وكيف يحكم بالكفر على من اعتقد ثبوت التصرف لهم في حياتهم وبعد مماتهم، حيث كان مرجع ذلك إلى قدرة الله تعالى خلقا وإيجادا، كيف وكتب جمهور المسلمين طافحة به، وأنه جائز وواقع لا مرية فيه بوجه البتة(79)، حتى كاد أن يلحق بالضروريات بل بالبديهيات، وذلك لأن كرامة جميع أولياء هذه الأمة في حياتهم وبعد مماتهم تصرفا أو غيره من جملة معجزات النبي (ﷺ) الدالة على صدق نبوته وعموم رسالته الباقية بعد موته، التي لا ينقطع دوامها ولا تجددها بتجدد الكرامات في كل عصر من الأعصار إلى يوم القيامة، ثم المنكر للكرامات بعد الموت، والتصرف حال الحياة وبعد الموت، إما أن يصدق بكرامة الأولياء أو يكذب، فإن كان ممن يكذب بها فقد سقط البحث معه، فإنه يكذب ما أثبتته السنة بالدلائل الواضحة، وإن كان ممن يصدق بها فالكرامة بعد الموت والتصرف في حال الحياة وبعد الممات من جملة الكرامات، إلى آخر كلامه النفيس، فليطالعه من أراد تحصيل الحق الذي لا يقف في وجهه باطل.

---

(78) سبق التعريف به في ج 1 ص 227 من هذا المجموع.

(79) ذكر العلامة السيد علوي المالكي المكي في كتابه : مفاهيم يجب أن تصحح، في معرض كلامه على جواز التوسل بالأموات من الأنبياء والأولياء والصالحين، ما نصه بعد كلام : ومما يدل على جواز التوسل بالأموات توسل النبي (ﷺ) بحقه وحق الأنبياء والصالحين، جاء في مناقب فاطمة بنت أسد أم الإمام علي بن أبي طالب كرم ا وجهه، أنها لما ماتت حفر رسول ا (ﷺ) لحدها بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول (ﷺ) فاضطجع فيه، فقال : ا الذي يحيي ويميت : وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين، وكبر عليها أربعا، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق رضي ا عنهم، رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ونلاحظ هنا أيضا أن الأنبياء الذين توسل (ﷺ) بحقهم على ا في هذا الحديث وغيره قد ماتوا، فثبت جواز التوسل إلى ا بالحق وبأهل الحق أحياء وأمواتا.

فتحصل مما بسطناه ثبوت كرامة الأولياء الذين من جملتهم الشيخ رضي الله عنه، وصحة تصرفهم في الكون بإذن الله، وأن نسبة تصرفهم برفع فلان مثلا إلى مقام كذا وإعطائه كذا أو منعه أو نحو ذلك مما ذكر في السؤال لا تمنعه الشريعة، وأن منع ذلك لا يكون إلا بسبب عارض بنحو التوسل للأدنى بالأعلى، وأما التوسل للأعلى بالأسفل كالتوسل لله بالولي فلا بأس به، كما تجوز الإستغاثة بالأولياء ومناداتهم في المآزق والتعلق بهم في تفريج الضيق، وليس في ذلك محظور أو محذور، وكل ما ورد مما يدل على المنع فهو لعارض عرض وقع الحكم لأجله، وربما تتطرق فيه احتمالات بالنظر إليها ليندفع المنع(80)، كالحديث الذي طلبتم كيفية التوفيق بينه وبين جواز مناداة الشيخ والإستغاثة به من قوله (ﷺ) : لا يستغاث بي الخ ... وقد رواه الطبراني، وفي سنده رجل متكلم فيه.

قال الإمام التاج السبكي في شفاء السقام : روينا في المعجم الكبير للطبراني حديثا ظاهره قد يقدح في هذا، يعني جواز الإستغاثة بالنبي (ﷺ)، قال الطبراني : حدثنا أحمد بن حماد بن زغبة المصري، حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عبادة قال : قال أبو بكر رضي الله عنه : قوموا نستغيث برسول (ﷺ) من هذا المنافق،

---

(80) قال الأستاذ عبد الغني حمادة في كتابه : فضل الذاكرين والرد على المنكرين : قال المبتدعون لا يجوز سؤال التوسل والإستغاثة والشفاعة من غير ا تعالى لقول النبي (ﷺ) : وإذا سألت فاسأل ا ، ثم قال بعد كلام تقدم : فلو صح قولهم بأنه لا يسأل أحد أحدا غير ا تعالى لما جاز أن يسأل جاهل عالما، ولا مريض طبيبا، ولا غريق مغيثا ينقذه من الغرق، ولا يطلب أحد حاجة من إنسان.
وهذا من المبتدعين كلام باطل لم يقله جاهل، لأن سؤال غير ا ورد في كثير من الآيات القرآنية، وفي الأحاديث الصحيحة، قال تعالى : "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"، وقال تعالى : "واسأل القرية التي كنا فيها"، وقال تعالى : "فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك"، وقال تعالى : "فاسأل به خبيرا"، إلى آخر الآيات القرآنية الكثيرة، هذا ولا يفوتنا أن نبي ا سليمان سأل أحد أصحابه أن يأتيه بعرش بلقيس، والقصة مشهورة، وقال تعالى : "واستعينوا بالصبر والصلاة"، وقال تعالى : "واعدوا لهم ما استطعتم من قوة"، وحكى عن العبد الصالح ذي القرنين قوله : فأعينوني بقوة، وفي مشروعية صلاة الخوف الثابتة بالكتاب والسنة مشروعية استعانة بعض الخلق ببعض، وكذا في أمره تعالى المومنين بأن يأخذوا حذرهم من عدوهم الخ ...
وقال عليه الصلاة والسلام : سلوا أهل الشرف (أي أهل التقى) عن العلم، فإن كان عندهم علم فاكتبوه فإنهم لا يكذبون، وقد سـأل كثير من الصحابة الكرام رضي ا عنهم رسول ا (ﷺ) كما جاء ذلك بالأحاديث الصحيحة، سأله أحدهم أن يرد له عينه، وسأله أحدهم أن يذهب العمى من عينيه ويبصر بهما، وسأله أحدهم شفاءه، وسأله أحدهم أن يشفع له، وسأله أحدهم أن يكون رفيقه في الجنة، وسألوه أن يزيل عنهم القحط والجدب، وسألوه نزول المطر، وسألوه انشقاق القمر، وسألوه، وسألوه، وسألوه، وهو كثير جدا في كتب الأحاديث الصحيحة.

فقال رسول الله (ﷺ) : إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله عز وجل. وهذا الحديث في إسناده عبد الله بن لهيعة(81). وفيه كلام مشهور، فإن صح الحديث فيحتمل معاني، أحدها أن النبي (ﷺ) كان قد أجرى على المنافقين أحكام المسلمين بأمر الله تعالى، فلعل أبا بكر ومن معه استغاثوا بالنبي (ﷺ) ليقتله، فأجاب بذلك بمعنى أن هذا من الأحكام الشرعية التي لم ينزل الوحي بها، وأمرها إلى الله تعالى وحده، والنبي (ﷺ) أعرف الخلق بالله تعالى، فلم يكن يسأل ربه تغيير حكم من الأحكام الشرعية، ولا يفعل فيها إلا ما يأمره به، فيكون قوله (لا يستغاث بي) عاما مخصوصا، أي لا يستغاث بي في هذا الأمر، لأنه مما يستأثر الله تعالى به.

ولا شك أن من أدب السؤال أن يكون المسؤول ممكنا. فكما أنا لا نسأل الله تعالى إلا ما هو في ممكن القدرة الإلهية كذلك لا نسأل النبي (ﷺ) إلا ما يمكن أن يجيب إليه. والثاني أن يكون ذلك من باب قوله : ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم. أي أنا وإن استغيث بي فالمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى، وكثيرا ما تجيء السنة بنحو هذا من بيان حقيقة الأمر، ويجيء القرآن بإضافة الفعل إلى مكتسبه، كقوله (ﷺ) : لن يدخل أحد منكم الجنة عمله، مع قوله تعالى : "ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون"(82). وقال (ﷺ) لعلي : لأن يهدي الله بك رجلا واحدا الخ ... فسلك الأدب في نسبة الهداية إلى الله تعالى. وقد قال تعالى : "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا"(83)، فنسب الهداية إليهم وذلك على سبيل الكسب. ومن هذا قوله تعالى لنبيه (ﷺ) : وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم"(84)، وأما قوله تعالى : "إنك لا تهدي من أحببت"(85). فالأحسن أن يكون المراد به التسلية والحمل عن قلب النبي (ﷺ) في عدم إسلام عمه أبي طالب، فكأنه قد قيل : أنت وفيت بما عليك، وليس عليك خلق هدايته لأن ذلك ليس إليك، فلا تذهب نفسك عليه.

وبالجملة فإطلاق لفظ الإستغاثة بالنسبة لمن يحصل منه غوث إما خلقا وإيجادا وإما تسببا وكسبا أمر معلوم، ولا شك فيه لغة وشرعا، ولا فرق بينه وبين السؤال، فتعين تأويل الحديث المذكور إلى آخر كلام السبكي في كتابه المذكور، وهو الحق الذي لا مرية فيه، ولا ينبغي للمخالف أن يحمل الناس على ترك ما تقلدوه، والميل بهم إلى ما اقتضاه نظره، كما فعله مقلدو ابن تيمية فطعنوا في الصوفية، فوقعوا فيما لا تحمد عقباه، فضرب الحق بسهم صائب لقلوبهم فأصماهم

---

(81) أبو عبد الرحمان عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمي، قاضي الديار المصرية وعالمها ومحدثها في عصره، توفي بالقاهرة عام 174هـ، قال فيه ابن قتيبة، كان ضعيفا في الحديث، ومن سمع منه في أول أمره أحسن حالا ممن سمع منه بآخره، انظر ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج 2 ص 77، وفي ميزان الإعتدال للذهبي ج 2 ص 64، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 249، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 115، وفي الفكر السامي للحجوي ج 1 ص 495 رقم الترجمة 209.

(82) انظر صحيح الإمام البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث 6099.

(83) سورة السجدة، الآية 24.

(84) سورة الشورى، الآية 52.

(85) سورة القصص، الآية 56.

وأصمهم، فلم يسمعوا إلا ما يوافق هواهم، فضلوا ونسبوا الضلال لغيرهم، فحرمهم الله من خيرهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

رب إن الهدى هداك وآياتك نور تهدي بها من تشاء

السؤال الثالث :

قال سيدنا الشيخ رضي الله عنه في الإفادة الأحمدية ما معناه :

عصاة أهل البيت يسلك بهم مسلك أهل بدر، يقال لهم اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم، والموفقون منهم لا يلحقهم أحد(86). فلما سمع ذلك أحد علماء الظاهر. قال : وكيف نوفق بين هذا وقول رسول الله (ﷺ) ما معناه : الجنة لمن أطاعني ولو كان عبدا حبشيا، والنار لمن عصاني ولو كان شريفا قرشيا، وقوله تعالى : "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(87)، وقوله تعالى : لا أنساب بينهم"(88) الآية.

الجواب :

اعلم أن ما نقله في الإفادة الأحمدية عن سيدنا الشيخ التجاني قدس سره من هذه المقالة دليل على استغراق الشيخ رضي الله عنه في محبة ساداتنا آل البيت، ولسلطان المحبة استواء على عرش القلوب، بالإغضاء عن كل ما يصدر عن المحبوب من العيوب، بمقتضى قوله (ﷺ) : حبك الشيء يعمي ويصم(89)، بمعنى أن المحب للشيء لا يرى في محبوبه عيبا، ولا يسمع فيه لوما، وإنما يرى ما يسره في سائر أحواله، تحققا بأن كل ما يفعله الحبيب حبيب، ومن هذا قول القائل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وقلت في إصلاح معناه :

وإذا الحبيب أتى بألف خطيئة ... جاءت محاسنه بخير شفيع

لأن الحبيب في عين الرضى دائما محبه :

وعين الرضى عن كل عيب كليلـة ... ولكن عين السخط تبدي المساويـا

---

(86) انظر الإفادة الأحمدية لسيدي الطيب السفياني، باب حرف العين، وفي كشف الحجاب لعلامة سكيرج ص 183.
(87) سورة الحجرات، الآية 13.
(88) سورة المؤمنون، الآية 101.
(89) ذكره الحافظ السيوطي في الجامع الصغير ج 1 ص 146، وعزاه فيه للإمام أحمد في المسند، وللبخاري في التاريخ، ولأبي داوود.

وقد كان الشيخ رضي الله عنه في حب هذا الجانب، بما علت به مرتبته لأعلى المراتب، ورأى الناس من إخلاصه في موالاة آل البيت وصدق محبتهم قيد حياته ما بهر المتمسكين بحبل حبهم، فتنافسوا معه في المحبة فلم يدركوا شأوه(90). وقد كان يوصي أصحابه وأحبابه على تعظيم آل البيت والصدق في محبتهم في السر والعلانية بإخلاص نية، ويؤكد على الشرفاء في تعظيم بعضهم بعضا ويقول ما معناه : لا ينبغي للشريف أن يتهاون بحق الشريف، فإن العوام غير مخاطبين وحدهم بولائهم، ومما أنشده الإمام ابن عربي في فتوحاته :

فلا تعدل بأهل البيت خلقا	فآل البيت هم أهل السيادة
فبغضهم من الإنسان خسر	حقيقي وحبهم عبادة

ولا شك أن البضعة المحمدية وهم سادتنا آل البيت، ولو صدرت منهم الذنوب، وتلطخوا بعيوب، ليسوا بمعصومين، فيتنزلون منزل الذهب الإبريز، لا يزال على نفاسته، ورفع قيمته، ولو طرح في المزابل، لأنه في حد ذاته كامل فاضل، وكان رضي الله عنه ينوه بشأنهم في مجالسه بما صار معروفا به بين الناس من شدة محبتهم والتحبب لهم بأنه المحب المخلص مع أحبابه في هذا الجانب، وللمحبة أحكام لا يقاس عليها غيرها عند من عرف ما تقضي به على من شرب خمرتها، ولهذا يتعين على المشفق على نفسه أن يتثبت في هذا المقام، وأن لا يحجبه عن صدق محبة آل البيت ما يقع منهم من ذنوب وآثام، وقد حفظت هذه الأبيات في المنام بعد قضية وقعت لنا مع بعض الأعلام وهي :

خذ سنة الله بين خلقه أبدا	ولتجعلنها لديك خير قسطاس
ما عظم المرء آل البيت دون مرا	إلا وعظم عند الله والناس
فالحظ بعين كمال الفضل قدرهـــــم	واخضع لهم دائما بالقلب والراس(91)

---

(90) ذكر العلامة الفقيه سيدي محمد الحجوجي رحمه ا ، في كتابه : إتحاف أهل المراتب العرفانية، ما نصه : وما بلغنا عن أحد من أهل وقته أنه كان يعظم أهل البيت كهو رضي ا عنه (يعني الشيخ أبا العباس التجاني) وكان لا يهدي لهم إلا الذهب، وما ثبت لدينا أنه أعطى لشريف فضة، وكان رضي ا عنه يقول فيهم : أهل بيت رسول ا (ﷺ) أبحت لهم عرضي. ومن عادته معهم أنه كان لا يترك أحدا من الأشراف يقبل يده، ولا يمد رجله بحضرة شريف أبدا، وإن دخل شريف وهو ماد رجليه جمعهما ولو كان نائما.

(91) ذكر العلامة سكيرج في كتابه : نسمات الأسحار في نظم الأشعار ص 108 : رأيت في رؤيا كأني أطالع في كناش بعض أشياخنا قصيدة في مدح سيدنا العباس عم النبي (ﷺ)، وهي مرسومة بالمداد، وفي آخرها ثلاثة أبيات مشتملة على التنويه التام بفضل ساداتنا آل البيت عليهم السلام، وهي مكتوبة باللون الأحمر، فصرت أكررها، فاستيقظت مستحضرا لما اشتملت عليه من المعاني، فدعاني داعي المحبة في هذا الجناب العالي إلى استعمال قصيدة على نحو ما رأيته، وأختمها بالأبيات الثلاثة تصديقا للرؤيا، وعلى ا قصد السبيل، وهي هذه :

قلبي لعهد حبيبي لا يرى ناسي	لم لا ولي ذكره الأنيس في ناسي
شغلي التذكر في بديع صورته	وفي محاسنه استغرقت أنفاسي

إلخ ... القصيدة، وهي من بحر البسيط، في 36 بيتا، وقد ختمتها بالأبيات الثلاثة المذكورة، إهـ... كما بعث رحمه ا إلى أكثر من مائة عالم وأديب بالمغرب والمشرق طالبا منهم تخميس الأبيات المنامية الثلاثة، فاستجاب معظمهم لذلك، فلما توصل رحمه ا بهذه التخاميس فرح بها غاية، وأفردها بتأليف سماه : شرب المدام، بتخميس أبيات رأيتها في المنام، ثم أفردها بتأليف آخر ترجم فيه للعلماء ممن خمس تلك الأبيات، وسماه : تحفة الأنام، بتراجم من خمس أبياتا حفظتها في المنام.

وليس في قوله رضي الله عنه : عصاة أهل البيت يسلك بهم مسلك أهل بدر إلخ ... ما يدل على إباحة ارتكاب المعاصي في حقهم، وإنما يدل ذلك على التنويه بالبضعة المحمدية وأنهم ملحوظون بعين الرضى عند الحق على أي حالة كانوا عليها، لكون الشريف الحقيقي لا تسول له نفسه انتهاك حرمة مولاه، وإن صدر منه شيء مما نهى عنه فإنه يبادر بالتوبة، ولا يموت حتى يتوب التوبة النصوح، فتتحقق المغفرة في حقه لكونه في عين الرضى. وقد أجاد القائل في مخاطبة محبوبه، مشيرا للحديث الوارد في السادة أهل بدر رضي الله عنهم :

يا بدر أهلك جاروا	وعلموك التجري
وقبحوا لك وصلي	وحسنوا لك هجري
فليفعلوا ما يشاءوا	فإنهم أهل بدر

وقال سلطان العاشقين(92) :

فليصنع القوم ما شاءوا لأنفسهم	هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

وليس المقصود من هذا كله ظاهر العبارة، كما نص عليه شراح الحديث المشار له، فقد حملوه على أن الله تعالى يوفقهم للتوبة قبل الموت طبق ما قلناه، وقيل أنه تعالى شرفهم بعدم المؤآخذة بما يصدر منهم، لأن غاية ما يصدر منهم لا يبلغ بهم لمرتبة الكفر، لأنه لا يمكن عند محبهم أن يموت واحد منهم على الكفر، لأن البضعة المحمدية قطعة نور لا تنطفئ بظلمة الكفر، فالإيمان فيها غريزي والشرف ذاتي، بخلاف ذلك في حق غيرهم، وفي هذا المعنى قلت :

شرف الآل لهم ذاتي يرى	ولدينا شرف الغير عرض
فلتكن خادمهم متصفا	بكمال الحب من غير غرض

(92) سلطان العاشقين، أبو حفص عمر بن علي المشهور بابن الفارض، ولد بمصر عام 576هـ، وبها توفي عام 632هـ، وهو من أشهر صوفية القرن السابع الهجري، انظر ترجمته في ميزان الإعتدال للذهبي ج 2 ص 266، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 383، وفي لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 317، وفي الخطط التوفيقية لمبارك ج 5 ص 59، وفي الأعلام للزركلي ج 5 ص 55.

ولبعض الأعلام(93) وقد أجاد غاية :

آل النبي لهم في نفس نسبتهم قدر عظيم له في المجد غايات
والأولياء وإن علت مراتبهم في رتبة العبد والسادات سادات

وفي معناها قلت :

آل النبي لهم في الكون منقبة خصوا بها في الورى بفضل ربهم
والأولياء على اختلاف مشربهم لم يحرزوا مطلبا إلا بحبهم(94)

قال الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي قدس سره : الذي أقول به أن ذنوب أهل البيت إنما هي ذنوب في الصورة لا في الحقيقة، لأن الله تعالى غفر لهم ذنوبهم بسابق العناية بقوله تعالى : "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"(95)، ولا رجس أرجس من الذنوب الخ ...

---

(93) إشارة للعلامة الفقيه سيدي أحمد بن محمد الزكاري، المعروف بابن الخياط الفاسي، سبق التعريف به في ج 1 ص 31 من هذا المجموع.

(94)المعروف عن العلامة سكيرج رحمه ا أنه كان على قدم شيخه أبي العباس التجاني رضي ا عنه، في تعظيمه لآل البيت الكرام وشدة اعتنائه وتعلقه بهم، وله رحمه ا في مدح هذا الجناب الطاهر عدة قصائد، منها قوله في مطلع إحدى قصائده :

كلي لكم سادتي وأنتم أملي وحبل حبي فيكم غير منفصل
رضاكم هو غايات المنى فإذا رضيتم نلت آمالي بلا ضلل
والله يا أهل بيت المصطفى لأنا خديمكم وبهذا الفخر يحصل لي

وقال في مطلع قصيدة أخرى في مدح مولاتنا فاطمة الزهراء رضي ا تعالى عنها :

لفاطمة الزهراء فخر على الناس وفضل عظيم لا يحد بمقياس
فما حسنها يحكيه حسن لأنه بدا جوهرا فردا محوطا بحراس

وقال في مطلع قصيدة أخرى في مدحها كذلك :

ما لي سوى من حبها أفناني وبحبها قد أينعت أفناني
ولأجل ما لاقيته من حبها أصبحت لا أصغى لمن يلحاني
وخلعت عني خلعة الصبر التـــــي نسجت بكتم الحب منـــذ زمـــــان

(95) سورة الأحزاب، الآية 33.

وإذا نظرت إلى ما قاله سيدنا رضي الله عنه وجدته جاريا على منهج الكمل الصادقين في محبة ساداتنا آل البيت(96)، وليس في ذلك ما يجرئ الشريف على المعصية، لأن ذلك في حق الشريف الحقيقي، وهو الذي ثبت نسبه بالحضرة المحمدية، بحيث لو كشف الحجاب عنه لوجد من بيت النبوة حقيقة ليس من الأدعياء في شيء، ولهذا يتعين في حق كل من انتسب لهذا البيت وإن ثبت شرعا نسبه الشريف أن لا يغتر بالنسبة الشريفة، وليعمل على أنه مجرد مسلم، ولا يعتمد على شرفه إلا إذا تحقق بشرفه بإخبار من لا ينطق عن الهوى.

وقد طوى بساط الخبر الذي لا يتطرق إليه احتمال بانتقال النبي (ﷺ)، ولم تبق إلا البشارات التي منها الرؤيا الصالحة، وكشف الحجاب بمشاهدته (ﷺ) لمن يراه يقظة، ولا يقع ذلك غالبا إلا لمن حفظ دينه فكان من الأولياء، والأولياء سريعوا التوبة بالرجوع إلى مولاهم كلما صدر منهم ذنب، فيتنزلون منزلة أهل بدر إذا كانوا من أهل البيت، وهذا المقام يحتاج إلى زيادة تلطف في المقال، مع كمال احترام لساداتنا أهل البيت الكرام، خشية تغير خاطرهم بسماع مثل هذا القول الذي يقضي بالطعن في الأنساب الطاهرة، الباطنة والظاهرة، وإن كان الكلام إنما هو في المدعين للنسب الشريف، وهم كثير، وإليهم يتوجه القول ليتداركوا أمر نفوسهم قبل فضيحتهم بعدم صحة نسبهم يوم الهول، وكل من ليس عنده القطع بما عند الله في نسبه فلا ينبغي أن يعتمد عليه ويفعل ما بدا له، وإن كان اللائق بالمكلفين أن يحترموا كل من ادعاه محقا كان أو مبطلا خشية الوقوع في المحظور في إخراجه من نسبه.

وقد كان العارف بالله سيدي إبراهيم المتبولي(97) رضي الله عنه يقول : لا ينبغي لمن يؤمن بالله ويحب رسول الله (ﷺ) أن يتوقف عن تعظيم الشريف والإحسان إليه حتى يعرف صحة نسبه، بل يكفيه تظاهر الشريف بالشرف، وذلك أوجه للمؤمن عند رسول (ﷺ) من حيث إنا عظمناه ووقرناه من غير توقف على صحة النسب.

---

(96) ومن شدة محبة الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا عنه بساداتنا أهل البيت الكرام، ما ذكره الفقيه العارف بربه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي في كناشه عن الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح أنه قال : وجه السلطان مولانا سليمان مبعوثا للشيخ سيدي أحمد التجاني رضي ا عنه يسأله عن سبب امتناعه لدخول ضريح مولانا إدريس رضي ا عنه، فأجابه بأن القبة مشحونة بمقابر الأشراف، فلا يحل المشي فوق مقابرهم، ومن عرف قبر الشريف واعتمد المشي عليه دخل النار. إهـ...

ومن أدبه معهم كذلك، أنه كان من عادته رضي ا عنه أن لا يمكن يده لأحد لتقبيلها، خصوصا ساداتنا الشرفاء، وحدث يوما أن الشريف سيدي الطيب السفياني قبل يده على حين غفلة، فأمره الشيخ رضي ا عنه أن يمكنه هو الآخر من يده ليقبلها، فقال له سيدي الطيب السفياني : وا يا سيدي إن قطع يدي لأهون علي من أن تقبلها، فأجابه رضي ا عنه قائلا : كيف يقبل يدي واحد من آل البيت، وا حتى تمكنني من يدك، فمد وقتئذ سيدي الطيب السفياني يده فقبلها الشيخ رضي ا عنه. انظر مضمن هذه الواقعة في رفع النقاب للعلامة سكيرج ج 2 ص 239.

(97) برهان الدين إبراهيم بن علي بن عمر الأنصاري المتبولي، صوفي مشهور، توفي عام 877هـ، أنظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج 2 ص 83-87 رقم الترجمة 322، وفي الضوء اللامع للسخاوي ج 1 ص 85، وفي الأعلام للزركلي ج 1 ص 52.

وليحذر المكلف كيف ما كان شريفا أو غير شريف من إطلاق لسانه في كل من ادعى هذا النسب أو النسبة لأهل الله. ولو تحقق كذبه في ظاهر الحال(98)، وإنما يطعن فيه من حيثية الطعن الشرعي، فيقول مثلا نسب هذا السيد لم يثبت إذا ثبت لدا هذا الطاعن عدم صحة نسب المطعون فيه بمواجب شرعية، وقد كان الإمام مالك رضي الله عنه يقول : من ادعى الشرف كاذبا يضرب ضربا وجيعا ثم يشهر ويحبس طويلا حتى تظهر لنا توبته، لأن ذلك استخفاف منه بحقه (ﷺ)، ومع ذلك كان يعظم من طعن في نسبه ويقول : لعله شريف في نفس الأمر.

وقد تنافس الناس في محبة هذا الجانب، ولكل واحد منهم على قدر ما هو من محبتهم شارب، ورضي الله عن الإمام الشافعي الذي يقول :

لو شق قلبي لبدا وسطه   سطران قد خطا بلا كاتب
الشرع والتوحيد في جانب   وحب آل البيت في جانب

وصرح رضي الله عنه بمذهبه في محبتهم الصادقة فقال :

يا راكبا قف بالمحصب من منى   واهتف بقاعد خيفها والناهض
إن كان رفضا حب آل محمد   فليشهد الثقلان أني رافضي

وإذا تقرر هذا لديك عرفت المقصود من كلام سيدنا رضي الله عنه وأنه جرى في هذه المقالة مجرى العاشقين لهذا الجناب الخليق بكل احترام، فنبه بذلك أحبابه ليقدروا قدر آل البيت على أي حال كانوا عليها، وأن العيوب البشرية لا تزري بمقامهم عند خالقهم، وإن كانت الأحكام الشرعية تجري عليهم فيما يصدر منهم لكونهم غير معصومين، ولم يرفع عنهم التكليف الشرعي بين الخلق في هذه الحياة الدنيا ودار القرار، ولكن الفضل بيد الله الذي أراد تطهيرهم من الرجس، فيحمل ما ورد في حديث : الجنة لمن أطاعني ولو كان عبدا حبشيا، والنار لمن عصاني ولو كان شريفا قرشيا على فرض صحته محمل التخويف من الوقوع في العصيان، مع كون ذلك من الوعيد الذي إخلافه في جانب الكريم مما يمتدح به كما قال العربي :

وإني إذا أوعدته أو وعدته   لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

(98) ذكر العلامة سيدي محمد الحجوجي، في كتابه إتحاف أهل المراتب العرفانية، ج 1، في ترجمة العارف با سيدي المفضل بن بوعزة المكناسي، قال : ذكر الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح رضي ا عنه أن سيدي المفضل بن بوعزة المكناسي سمع رجلا يسب شريفا، فقيل له : إنه شريف وتسبه ؟ فقال : وإن كان، فحلف أن لا يقيم ببلد يسب فيها الشريف، وارتحل لتطوان وبها توفي.

على أن الجنة أيضا في حق من أطاع الحق ليس من الواجب على الله، بل له سبحانه أن يدخل الجنة من عصاه والنار من أطاعه، لكونه هو الفاعل المختار، فلا يجب عليه شيء طبق العقيدة السالمة من زيغ الأهواء المضلة، وبهذا ينتفي الإشكال بين قول الشيخ والحديث المذكور، والتوفيق بين ذلك وبين قوله تعالى : "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(99) واضح من قوله رضي الله عنه : والموفقون منهم لا يلحقهم أحد. فآل البيت مراتبهم متفاوتة بحسب أعمالهم في الإكرام، وإن كان النسب لا تفاوت فيه، ولا يقضي كونهم مع جدهم في دار النعيم أنهم أفضل من الأنبياء، ولو بلغ الشريف ما بلغ لم يبلغ درجة الكرامة التي يحرز عليها الأنبياء عليهم السلام، لأنهم أتقى الخلق وأكرمهم على الحق، وإن كان الكلام إنما هو في كون عصاة أهل البيت يسلك بهم مسلك أهل بدر في المغفرة لذنوبهم، لا يقال أن ما قاله الشيخ رضي الله عنه لم يرد عن الشارع حتى يقطع به، لأنا نقول إنه لم يأمر رضي الله عنه الناس بالقطع بقوله، وإنما ذكره لأهل الإعتقاد في جنابه ليقوموا بما اقتضته المحبة الصادقة في هذا النسب الشريف، ولا عليه فيمن لم يقطع بمضمن مقاله، وقد تقدم لنا التنبيه على هذا المعنى فيما بيناه أتم بيان، وأما التوفيق بين مقاله وبين قوله تعالى "فلا أنساب بينهم يومئذ"(100) إلخ ... فقد نص المفسرون على أن ذلك عند النفخة الأولى في قول ابن عباس رضي الله عنهما، أو النفخة الثانية في قول ابن مسعود رضي الله عنه، ومعناه : لا أنساب بينهم يتفاخرون بها، وإلا فالأنساب ثابتة بينهم لا يصح نفيها، وقد ذكر العلامة السيوطي رحمه الله في كتابه إحياء الميت بفضائل أهل البيت(101) أحاديث صريحة بأن قوله تعالى لا أنساب بينهم في غير آل البيت، قال أخرج الطبراني في الأوسط عن جابر أنه سمع عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما يقول للناس حين تزوج بنت علي رضي الله عنه : ألا تهنئوني، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببي ونسبي(102)، وقال فيه أيضا أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله (ﷺ) : كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلى سببي ونسبي(103)، وقال فيه أيضا أخرج ابن عساكر(104) في تاريخه عن ابن عمر رضي الله عنهما

(99) سورة الحجرات، الآية 13.

(100) سورة المؤمنون، الآية 101.

(101) إحياء الميت بفضائل أهل البيت، من تأليف العارف بالله العلامة جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر الشافعي السيوطي، طبع سنة 1415هـ - 1995م ببيروت، بتحقيق وتعليق الشيخ كاظم الفتلي.

(102) رواه الطبراني في المعجم الكبير (مسند الإمام الحسن عليه السلام) ج 1 ص 124، بسنده عن جابر، كما رواه أيضا أبو نعيم في حلية الأولياء ج 7 ص 314، وهو الحديث الثاني والثلاثون من كتاب إحياء الميت بفضائل أهل البيت للسيوطي.

(103) رواه الطبراني في المعجم الكبير (مسند ابن عباس) ج 1 ص 129، كما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج 9 ص 173، وهو الحديث الثالث والثلاثون من كتاب إحياء الميت بفضائل أهل البيت للسيوطي.

(104) أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي، المعروف بابن عساكر، المؤرخ الحافظ الرحالة ولد بدمشق عام 499هـ، وبها توفي عام 571، له تصانيف كثيرة منها : تاريخ دمشق الكبير، والإشراف على معرفة الأطراف، وكشف المغطى في فضل الموطا، وأربعون حديثا من أربعين شيخا من أربعين مدينة، ومعجم الصحابة، ومعجم النسوان، وغيرهم من المصنفات الكثيرة.
أنظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 335، وفي البداية والنهاية لابن كثير ج 12 ص 294، وفي طبقات الشافعية للسبكي ج 4 ص 273، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 273، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 398 رقم الترجمة 858.

قال رسول (ﷺ) : كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري(105)، وبهذا انتفى الإشكال، وتم التوفيق في أحسن حال، والله الموفق.

السؤال السابع :

هل على المريد التجاني من شيء إذا دخن التبغ الدخان ؟

اعلم أنه قد وقع خلاف بين المتأخرين في التدخين بهذه العشبة الخبيثة من الإباحة إلى المنع، وكل استدل بما اقتضاه نصيبه من العلم والورع، فمن مبيح له يقول لا شيء على مدخنه وعليه جل الأجاهرة، وينشد فيه للقطب سيدي عبد الغني النابلسي(106) رضي الله عنه قوله :

شربنا دخان النتن لا عن مودة — له بل هو الممقوت عند ذوي الحجا
ولكن عفريت الهموم بصدرنا — دهانا فدخنا عليه ليخرجا

ومن قائل بالمنع من تدخينه واستنشاق غباره، ومن فعل ذلك فقد عصا الله تعالى، والمريد التجاني في هذا الحكم مع غيره على حد السواء، ولا ينقطع عن الطريقة بشربه أو استنشاقه، وإنما ينقطع عنها بنقيض العهد الذي أخذ عليه عند تلقي الإذن فيها مما هو مقرر، وتقدم لنا التنبيه عليه، وقد بالغ الشيخ رضي الله عنه من التحذير من الوقوع في المعاصي والإصرار على الذنوب صغائرها وكبائرها، لأنها تؤدي إلى انتهاك حرمة الشرع، وانتهاكه من الأسباب التي تجر للقطيعة كما بسط ذلك في وصاياه لأصحابه وأحبابه.

وبعض الفقهاء فرق بين حكم التبغ في التدخين وبين غبارها في الإستنشاق وجعله تحت اللسان أو على لثة الأسنان استياكا، كما يفعله بعض أصحاب التعفين الذي هو أقبح أنواع الإستنشاق والتدخين، وعلى كل حال فإن الذي يتعين عندنا في الطريقة أنها ليست من قواطع المريد عن ورده، ولا يمنع مستعملها من الإذن له إن التزم شروطها المقررة وأركانها المعتبرة، وقد وقع مرارا بين

(105) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج 1 ص 124، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال ج 6 ص 102 وهو الحديث الرابع والثلاثون من كتاب إحياء الميت بفضائل أهل البيت للسيوطي.

(106) عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي، محدث حافظ فقيه أديب مؤرخ مفسر صوفي، ولد بدمشق عام 1050هـ، وبها توفي عام 1143هـ، من مؤلفاته : تعطير الأنام في تعبير المنام، ونفحات الأزهار على نسمات الأسحار، وكشف الستر عن فرضية الوتر، ولمعان الأنوار في المقطوع لهم بالجنة والمقطوع لهم بالنار، وإيضاح الدلالات في سماع الآلات، وجواهر النصوص وشرح أنوار التنزيل للبيضاوي، ومناجاة الحكيم ومناغاة القديم، وغيرهم.
انظر ترجمته في فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 756 رقم الترجمة 415، وفي سلك الدرر للمرادي ج 3 ص 30، وفي معجم المطبوعات لسركيس 1832، وفي عجائب الآثار للجبرتي ج 1 ص 154، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 32.

فقهاء الطريقة كلام في شأنها، حتى كان بعضهم يخرج من صف الإخوان عند قراءة الوظيفة حاملها(107) مستدلا بما نص عليه الشيخ رضي الله عنه في تقديمه لتلقين الورد الذي كتبه لصاحبه السيد عبد الوهاب بنيس الضرير(108) رحمه الله بأن لا يلقنه إلا لمن التزم أن لا يستعمل شيئا من القاذورات شربا أو طعما أو استنشاقا أو استفافا أو تدخينا، فكان المقدم المذكور واقفا مع ذلك، وينكر بشنيع النكير على مستعمل شيء من ذلك من الأصحاب والإخوان، وعلى من يلقنهم الورد من غير اشتراط ترك ذلك واجتنابه، وكان يقول سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول : من اطلعتم عليه أنه حامل لتابغة بأنواعها وهو في الوظيفة فأخرجوه منها، فكانوا يخرجونهم، وبعضهم يترك الظرف المستعملة فيه مع النعال.

وقد بسطت الكلام على هذا المعنى في ترجمة المقدم المذكور في تأليفي المسمى : رفع النقاب بعد كشف الحجاب(109)، وتعرضت فيه لقول العارف بالله سيدي محمد الناصري الذرعي(110) أن مستعملها إذا لم يتب من تعاطيها فإنه يموت على سوء الخاتمة عياذا بالله، وكان الشيخ رضي الله عنه يصحح ذلك لأنها تورث خبل العقل مع عدم اكتراث مستعملها بها، فهي عنده من المنكرات التي يحرم تعاطيها، ومتعاطي المنكرات إن لم يتب يحل به هذا البلاء الوخيم، وقد جرى ناظم العمل الفاسي على القول بتحريم استعمالها في قوله :

---

(107) ذكر عن العارف با سيدي عبد الوهاب الضرير بأنه قال : قال سيدنا الشيخ رضي ا عنه : من اطلعتم عليه أنه حامل لتابغة بأنواعها وهو في ذكر الوظيفة فأخرجوه منها.

(108) الحاج عبد الوهاب بنيس الفاسي، من خاصة أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي ا عنه، كان ضريرا، وقال يوما للشيخ : يا سيدي التلاميذ يرونك وأنا لا أراك، فقال له الشيخ رضي ا عنه : إن عبد ا بن أم مكتوم كان من أكابر الصحابة وهو لا يرى النبي (ﷺ)، وذكر بعض الثقاة عن سيدي عبد الوهاب بنيس أنه كان لا يحتاج إلى من يقوده، يذهب وحده إلى أي مسجد أراد مع كثرة ازدحام الناس في الطرق، انظر روض شمائل أهل الحقيقة لأحمد بن محمد العلوي الشنجيطي رقم الترجمة 18، وفي كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 229، وفي رفع النقاب لنفس المؤلف ج 4 ص 72، وفي نخبة الإتحاف للفقيه الحجوجي رقم الترجمة 27.

(109) أنظر رفع النقاب للعلامة سكيرج ج 4 ص 72-77.

(110) الشيخ أبو عبد ا محمد بن محمد بن أحمد بن ناصر، شيخ أهل العلم في عصره، له تصانيف متنوعة منها الأجوبة الناصرية، وفتاوي في الفقه، وسيف النصر لكل ذي بغي ومكر، وشرح لامية الأفعال، ومنظومة في فقه مالك، وشرح فرائض خليل وغيرهم. وهو شيخ الطريقة الناصرية، سافر للحج مرتين فكثر الآخذون عنه شرقا وغربا. توفي رحمه ا عام 1089هـ عن 78 سنة. انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف ص 313 رقم الترجمة 1218 وفي النبوغ المغربي لعبد ا كنون ج 1 ص 283 وفي الأعلام للزركلي ج 7 ص 63 وفي خلاصة الأثر للمحبي ج 4 ص 238.

وللإمام العلامة النقاد سيدي محمد بن الحسن بناني(111)، محشي الزرقاني، فيما نقله عنه شيخ جماعة الأعلام بفاس سيدي الحاج محمد كنون(112) في اختصاره لحاشية العلامة الرهوني(113) هذه الأبيات :

الزم طريق الهدى وامش على السنن ... وخالف النفس وانقذها من المحن
إياك من بدع تلقيك في عطب ... لا سيما ما فشا في الناس من نتن
مفتر الجسم لا نفع به أبدا ... بل يورث الضر والأسقام للبدن
أف لشاربه كيف المقام على ... ما ريحه يشبه الأزبال في العطن
أفتى بحرمته جمع بلا شطط ... فاحذر مقالة من يرديك للوهن
ولا يغرنك من في الناس يشربه ... فالناس في غفلة عن واضح السنن
يغمى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وقد زاد على هذه الأبيات شيخنا العلامة الرئيس، سيدي الحاج عبد الكريم بنيس(114)، بعد أن كنت اقترحت عليه نظم قصيدة في ذم هذه العشبة الخبيثة، فرأى رؤيا حملته على الإجابة لذلك الإقتراح، ونسجت على منواله تقريظا عليها لا بأس بنقل ذلك هنا، قال أبقى الله حرمته مذيلا تلك الأبيات بهذه :

صمم على المنع واعتقده معتمدا ... دع عنك ذا جدل باغ وذا إحن
أعلن به وأشده في بلاد هدى ... فالحق أجدر بالإشهار والعلن
جاء الحديث الصحيح الإحتجاج به ... أن المفتر مثل الخمر في الاجن
نهى الرسول النبي عنهما فهما ... سيان في حرمة المثمون والثمن
وجاء عن قادة أجلة نبها ... ذوي البصائر والفتوى بلا وهن
أن الغبار الذي يحشي أنوفهم ... منه مثيل له في الحكم والفتن
أليس في عمل الفاسي حرمته ... فعلا وتجرا وتنفيرا لذي الفطن
وأحرقت من ولاة العدل جملتها ... بعد اتفاق فتاوي قادة الوطن
أعظم به من دليل لا يعادله ... شقاشق من عشيق الخبث والنتن
إذ كيف يحسن إتلاف لمحترم ... أو يمنع التجر في ذي النفع أو ثمن
ما ذاك إلا لفقد النفع أجمعه ... فيه وإتلاف نقد في أذى بدن

---

(111) أبو عبد ا محمد بن الحسن البناني، من مشاهير فقهاء مدينة فاس، كان إماما وخطيبا بضريح مولانا إدريس الأزهر، وهو من مواليد فاس عام 1133هـ، وبها توفي عام 1194هـ، من مؤلفاته : حاشية استدرك بها على الزرقاني ما ذهل عنه في شرحه على مختصر خليل، وحاشية على مختصر الشيخ السنوسي في المنطق، وشرح على السلم، وحواش على تحفة الحكام لابن عاصم، وغيرهم، انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 357 رقم الترجمة 1426، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 347 رقم الترجمة 772، وفي سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 161-164، وفي معجم المطبوعات لسركيس 590، وفي فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 227 رقم الترجمة 79، وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 91.

(112) سبق التعريف به في ج 1 ص 232 من هذا المجموع.

(113) أبو عبد ا محمد بن أحمد الرهوني، من أكابر فقهاء المغرب في عصره، ولد في شهر ذي القعدة الحرام عام 1159هـ، وتوفي رحمه ا بعد فجر يوم السبت 13 رمضان المعظم عام 1230هـ، وله تآليف كثيرة منها حاشيته على شرح الزرقاني على مختصر خليل، وحاشية على شرح ميارة الكبير على المرشد المعين، انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 378 رقم الترجمة 1512، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 352 رقم الترجمة 783، وفي سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 104، وفي النبوغ المغربي لعبد ا كنون ج 1 ص 295.

(114) سبق التعريف به في ج 1 ص 40 من هذا المجموع.

والبهم شرابها المستنشقون لها … من الولوع بها المشئوم في جنن
لا يستفيق لقبح من يعوم به … ولا يحس بلدغ الصل ذو كفن
من يضلل الله لا مهدي يرشـــــده … وذو الهدى من عطاء الله في منــن

ثم قال :

وخذ إليك أبا العباس قاعدة … تغنيك عن كثرة الآراء والدمن
إذا تخالف ذو فقه بنازلة … ووافق البعض ذو فتح وذو يقن
فالحق مع أهل فتح وهو أيدهم … وصانهم عن هوى النفوس والإحن
أهل القلوب جميعا باتفاقهم … شرقا وغربا على التنفير من نتن
كما العياشي(115) أبداه برحلته … موافقا مستفيدا من ذوي اللقن
كذاك الإبريز عن أستاذه وكفى … به وصرح بالأضرار والمحن
وقال عنه بإيذاه ملائكة … وأهل دائرة بريحه النتن
ومن مفاسده ونجس شاربه … أجزاء انفصلت بالحرق والدخن
واستفها بفم والحرق يمنع من … أكل المباح كخبز كيف بالدرن
وتلك أنبوبة له بداخلها … نظير ما ابتلع المنهوم من صنن
فاشقق لها تلفي ما حوته من قذر … به يمر الذي يجر للجرن
وخرقة عدها نشاق منتشق … تريك ما برفيع الوجه عن علن

ثم قال :

يا أهل ذكر وأوراد وأهل تقى … ومن عنى بصلاة الهاشمي المدني
تجنبوها وجنبوا أهاليكم … منها وسدوا أنوفا من شذا العفن
لا سيما من عنى بالطهر كامله … في نهجه كالتجاني واضح السنن
لا يلتقي نفس بذكر جوهرة … وفاتح لخبيث الريح في وطن
الله طهركم واختاركم لهدى … بذكره فأديموا طهرة البدن
ثم الصلاة على الماحي وشيعته … أهل النزاهة والتقديس والمنن
وآله الغر زكاهم وطهرهم … وأذهب الرجس عنهم لا إلى زمن
ومن أتى ناصحا لنا يقول هدى … ألزم طريق الهدى وامش على السنن

ونص ما أنشأته تقريظا عليها :

هذا هو الحق في سر وفي علن … والحق أبلج لا يخفى على فطن
ومن يخالف هذا فهو متبع … هواه في باطل من أعظم المحن
والتابعون لنهج الحق ما فتئوا … مؤيدين برغم أنف ذي إحن
قل للذين بها بين الملا ولعوا … وقد رأوها مباحا غير ممتهن

---

(115) أبو سالم عبد ا بن محمد بن أبي بكر العياشي، فقيه، أديب، مؤرخ، صوفي، من مواليد عام 1037هـ، وتوفي عام 1090هـ، له مؤلفات منها : ماء الموائد، وهي رحلته الشهيرة المعروفة بالرحلة العياشية، وإظهار المنة على المبشرين بالجنة، وتحفة الأخلاء بأسانيد الأجلاء، وتنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية، واقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، وغيرهم من التصانيف الأخرى.
انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 314 رقم الترجمة 1224، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 333 رقم الترجمة 746، وفي فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 832 رقم الترجمة 472، وفي صفوة من انتشر للإفراني ص 191، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 129.

لا خير فيما يباح إن يكن قذرا ... لا سيما إن يكن يبدو على الذقن
والأنف من متعاطيها تلطخ في ... لوث ومنديله في غاية النتن
لا سيما وذووا الكشف الصحيح لهم ... أشد نهي عليها دائم الزمن
والختم صحح قول الناصري ومن ... يقول فاعلها يموت ذا فتن
هب أنها طيب الأشيا أليس على ... ذوي النهى تركها من أجل ذا السنن
ولا يغرنك المستنشقون لها ... ولا الذين أباحوها لممتحن
قالوا مضرة تركها محققة ... وفعلها زائد في قوة الفطن
هذا لعمرك قول لا يميل له ... إلا امرؤ يتبع الأهواء في الوطن
أعماه وهم فظن تركها ضررا ... ولا مضرة إلا الوهم من شجن
وأي نفع يرى فيها لفاعلها ... وفعلها سبب في نزلة البدن
فلتطلب الله عفوا إن بليت بها ... فإنها من عظيم الشر والمحن
ولتقطعنها بتدريج فتحمده ... وأمرها إن تكن تركتها يهن
وإن تواظب عليها غير مكترث ... بالنهي تندم على المثمون والثمن

والحاصل أن تعاطي التدخين بها أو استنشاقها أو استفافها مزر بمروءة ذوي العرض النقي(116)، يتباعد عنه كل متقي، ولكن سهم الشيطان بها مصيب لعقل متعاطيها بأوهام، لا يكاد أن يتركها ما دام يرى غيره يستعملها من غير احتشام، وقلما تركها الشخص المبتلي بها ولم يعد إليها، ولا يبالي بما ينفقه عليها، فعلى العاقل من الإخوان أن يستتر عند تناولها لما ورد في الحديث من قوله (ﷺ) : من ابتلى منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر، ويقلد قول من قال بإباحتها، والأولى والأفضل في حقه هو تركها في السر والعلن طبق ما قررناه، وفيه كفاية،

(116) جاء في كناش العارف با سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي أنه قال : ذكر الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح رضي ا عنه عن سيدي عبد الوهاب بنيس الضرير أنه قال : التقديم الذي عندي من قبل الشيخ رضي ا عنه مشروط عندي فيه أن لا أعطي الورد لمن يستعمل هذه العفونات شما وأكلا وبخارا، وأعطيه لمن كتب ا عليه وابتلي بشرب الخمر.

والحمد لله الذي تمم المحاسن به في البداية والنهاية، ونشكره سبحانه على ما وفقنا إليه برائد الهداية، فكنا بالتوفيق الإلهي من المعتقدين في جانب أهل الولاية، وهو الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

حرر بالجديدة من المغرب بتاريخ متم رجب الفرد الحرام عام 1345 هـ، خديم الحضرة المحمدية عبد ربه أحمد سكيرج غفر الله ذنبه، وستر عيبه، آمين.

محتويات كتاب : طرق المنفعة بالأجوبة
عن الأسئلة الأربعة